من تراثنا الإسلامي في مقارنة الأديان

مع الجاحظ

في رسالة

« الرد على النصارى »

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد - القاهرة

١- رسالة الرد على النصارى

من بين رسائل الجاحظ رسالة عنوانها « الرد على النصارى » ، وقد نُشرت حتى الآن أربع نشرات على الأقل : النشرة التى طُبعت على هامش كتاب « الكامل » للمبرّد ، ونشرة المستشرق يوشع فنكل ، ونشرة الأستاذ عبد السلام هارون (وكانت كل من هذه النشرات الثلاث تضم مع الرسالة المذكورة غيرها من رسائل الجاحظ) ، ثم نشرة د. محمد عبد الله الشرقاوى (وقد طُبعت الرسالة فى هذه النشرة مستقلة) . وسوف يكون رجوعى فى هذا البحث إلى نشرة الأستاذ هارون ، وهى فى ثمان وأربعين صفحة من القطع المتوسط بملاحظات التحقيق .

وهذه الرسالة عبارة عن فصول مقتطفة من كتاب للجاحظ فى الرد على النصارى قام باختيارها (واختيار أمثالها من كتب أخرى لأديب العربية وفيلسوفها العظيم) أديب غير مشهور اسمه عبيد الله ابن حسان (١) . ويذكر القاضى عبد الجبار أن للجاحظ رسالتين فى الرد على النصارى ، وهما « الرسالة العسلية » و « المختار فى الرد على النصارى » (٢) . فهل هما كتابان مختلفان ؟ أم هل الرسالة الثانية هى مجرد مختارات من الأولى ؟ لا نستطيع أن نجيب على

ذلك ، فإن « الرسالة العسلية » مازالت مفقودة حتى الآن فيما نعرف (٣) .

وفى الرسالة التى ندرسها فى هذه الصفحات يذكر الجاحظ بعضاً من شُبه النصارى التى كتب له بها بعض الغيارى على الدين ممن أرادوا منه الردّ عليها ، ثم يقفّى على ذلك بنقضها. وأهم ما جاء فى هذه الشبهات أن القرآن الكريم يذكر تأليه النصارى لمريم عليها السلام مع أنهم ينكرون اتخاذها إلهًا على أى نحو من الأنحاء ، وأنه قد ورد فيه أيضا أن اليهود كانوا يقولون ببنوة عُزَيْر لله سبحانه وتعالى ، وهم أيضا ينفون هذا ويجحدونه . ومن ذلك أن هامان قد ذُكر فى القرآن الكريم على أنه من حاشية فرعون ، مع أن المعروف أنه كان فى زمن الفرس بعد فرعون بدهر طويل . كما جاء فى القرآن عن يحيى بن زكريا عليهما السلام قوله سبحانه وتعالى : « لم نجعل له من قبْلُ سميّا» ، رغم أنه كان هناك قبله من اسمه يحيى . كذلك يعترض النصارى على ما ذكره القرآن الكريم من أن عيسى قد تكلم فى المهد (٤) . ويبتدىء الجاحظ ، قبل الدخول إلى نقض هذه الشبهات ، بمناقشة الأسباب والظروف التى جعلت رأى عامة المسلمين فى النصارى طيبا على عكس نظرتهم لليهود والمجوس ، ثم يثنّى ببيان الغلط فى

هذا الموقف ، موضحا أن قوله تعالى : « ولتجدنَّ أقْربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ... » (٥) لا يعنى النصارى بوجه عام بل فريقا منهم مخصوصا كبحيرا والرهبان الذين اتصل بهم سلمان الفارسى قبل أن ينتهى به المطاف إلى يثرب حيث التقى بالنبى عليه السلام وآمن به (٦) .

وقد أبدى ابن قتيبة سخطه على صنيع الجاحظ فى رسالته هذه فقال إنه قد عمل « كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوّز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين » (٧) .

ولا يقتصر رأى ابن قتيبة السئ على هذا الكتاب وحده بل يشمل الجاحظ وأعماله كلها تقريبا ، إذ قال إنه « من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل » ، وإنه يقصد إلى الإضحاك والعبث استمالةً للأحداث وشُرّاب النبيذ ، ويستهزئ بالحديث . كما يأخذ عليه تأليفه الكتب فى نصرة الشيء ونقيضه معًا ، ويرى فى ذلك دليلاً على انتفاء الإحساس بالمسؤولية لديه (٨) .

على أنَّ ملاحظة ابن قتيبة حول ردود الجاحظ على شبهات النصارى إن صدقت على بعض هذه الردود (إذ إن بعضها موجز فعلاً

ويفتقر إلى ما عُرِفتْ به كتابات الجاحظ من التوسُّع وتقليب الأمر على وجوهه المختلفة وتفنيده بالأدلة الساطعة والحجج القوية البارعة) (٩) فإنها لا تدل على ما اتهم به الكاتب السنّى نظيره المعتزلى من أن الأمر يبدو وكأنه قد أراد تنبيه النصارى على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين . كيف ذلك ولأبى عثمان كثير من الأعمال التى ينافح فيها عن دين اللّه ، ككتاب « الرد على اليهود » وكتاب « الرد على من ألحد فى كتاب الله عز وجل » وكتاب « نظم القرآن » وكتاب « آى القرآن » وكتاب « دلائل النبوة » مثلا ؟

وقد ذكر المرزبانى أن له كتبا كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وإن سارع فقال إنه « ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلب كتب تشبهها » (١٠) . ثم إن فى رسالة « الرد على النصارى » نفسها أشياء جدّ قوية فى تسخيف اعتراضات النصارى وإبراز تفاهة مزاعمهم . ومن يدرى ؟ فلعله لو وصلتنا « الرسالة العسلية » لوجدنا فيها حججًا أخرى وتفصيلاً أكثر فى الرد على هؤلاء القوم .

ومن الأشياء المهمة التى تُذْكر له ، رحمه الله ، أنه كان من

أوائل من نبهوا إلى أن القرآن حينما قال : « ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » لم يقصد جميع النصارى بل طائفة منهم فقط أبدت المودة تجاه الإسلام ونبيه . وسوف نناقش هذه النقطة فيما بعد ، ونبين وجه الخطورة فى الظن بأن القرآن يثنى على النصارى رغم تثليثهم وتأليههم لعيسى عليه السلام وقولهم بتجسد اللّه تعالى ونزوله إلى الأرض وموته صلبًا وكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم للقرآن الكريم .

أما دفاع الجاحظ عن الشىء ونقيضه فهو لون من الترف الفكرى والحساسية العقلية التى ترى الجوانب المختلفة للأمور . وطبيعة الحياة أنه ما من شىء إلاّ ويمكن النظر إليه من زوايا متعددة . وقلما يوجد شىء كله خير فلا شرّ فيه ، أو كلّه شر فلا خير فيه . والقرآن الكريم نفسه يقول عن الخمر ، التى وصفها بأنها « رجس من عمل الشيطان » (١١) ، إن فيها مع ذلك منافع للناس (١٢) . وهو رغم حملته على أهل الكتاب من يهود ونصارى يعود فيستثنى منهم فريقًا صالحًا ليس فيه عيوب سائر قومه . كذلك تكررت فيه الحملة على كنود الإنسان وكفره وظلمه ورعونته ، ومع هذا فقد ذكر أن الله كرّم الجنس البشرى وفضّله على كثير ممن خلقهم تفضيلا . وعلى أية

حال ، فهذه أسماء عدد من الكتب التي يمدح فيها الجاحظ الشيء ويذمه : « كتاب العثمانية » وكتاب « الرد على العثمانية » ، وكتاب « إمامة معاوية » وكتاب « إمامة بنى العباس » ، ورسالته « فى مدح النبيذ » ورسالته « فى ذم النبيذ » ، ورسالته « فى مدح الوُرّاق » ورسالته « فى ذم الوُرّاق » (١٣) .

إن فى الجاحظ بل وفى المعتزلة جميعا جسارة عقلية ، وهذا ما لا يرتاح إليه كثيرا ابن قتيبة السنّى المحافظ . ولا ننس أنه كان بين أهل السنة والمعتزلة خصومة فكرية ، وسياسية أيضًا .

أمّا دعوى ابن قتيبة بأن الجاحظ كان يضع الأحاديث فتبدو بعيدةً لا تُصدّق ، وكذلك القول بأنه كان يقصد الاستهزاء بالحديث النبوى الكريم ، إذ لا يفعل ذلك مسلم . إنما الأمر أن بعض العلماء قد يرون صحة حديث ما ، على حين ينفى صحته فريق آخر . وقد يخرج هؤلاء الأخيرون إلى السخرية ممن يقبلون الحديث ، بل قد يرون فيه إساءة إلى الإسلام ومناقضة لأصوله المجمع عليها ، فيظن من يقبلونه بل قد يدّعون عليهم أنهم إنما يستهزئون بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم . وحاشا مسلمًا أن يجرؤ على هذا ! ثم إن الجاحظ كان بطبيعته مرحًا يحب الفكاهة والنادرة ، كما كان بارعًا فى التهكم

بخصوم فكرته أيما براعة ، على عكس ابن قتيبة الوقور الذى يبدو مما قرأناه له وكأنه لم يكن يعرف الضحك .

وليس معنى ذلك أننا نريد الغض من ذلك المفكر السنّى الكبير ، فللرجل أيادٍ جليلة على الأدب العربى والفكر الإسلامى . وإنما نريد أن نوضح البواعث التى حدت به ، رحمه الله ، إلى تلك الحملة الشديدة على أبى عثمان . وكلاهما بعْدُ متعصبٌ لدينه ، حريص على نصرته ، يقف بالمرصاد لكل من تتطاول عنقه إلى النيل منه . لكن لكل منهما بعد ذلك طريقته وأسلوبه .

وإذا كان ابن قتيبة قد اتّهم طريقة الجاحظ فى الرد على النصارى فإن الغزالى قد اتُّهم هو أيضا بمثل ذلك ، إذ قال عن المنهج الذى اتبعه فى عرض مذهب الباطنية : « فجمعتُ تلك الكلمات ورتبتها ترتيبا محكما للتحقيق واستوفيتُ الجواب عنها حتى أنكر بعض أهل الحق علىّ مبالغتى فى تقرير حجتهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها » (١٤) .

والواقع أن هذا الأسلوب هو أسلوب المنصفين الواثقين بأنفسهم ، فهم يريدون أن يعطوا لرأى خصومهم الفرصة كاملة ليعرف الجمهور كل

شيء عنه قبل أن يشرعوا في الرد عليه ، ثقةً منهم أنهم قادرون على تفنيده تمامًا . وهذا الإنصاف هو سنّة إسلامية ، فينبغي ألا تضيق الصدور به . وهو فوق ذلك يمكّن لصاحبه في قلوب القراء ، إذ يلمسون بأنفسهم صدقه في عرض رأي خصومه ، وهذا من شأنه أن يميل آذانهم إليه ويجعلهم يطمئنون إلى ما يقول . وفي كلام الجاحظ نفسه في الرسالة التي نحن بصددها دليل على هذا الذي نقول ، إذ جاء فيها : « قد جعلنا في جواباتهم وقدّمنا مسائلهم بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ليكون الدليل تاما والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبّر هذا الجواب أنا لم نغتنم عجزهم ولم ننتهز غرّتهم ، وأن الإدلال بالحجة والثقة بالفلْج والنُّصرة هو الذي دعانا إلى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم وألا نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه أو يُشرْ إليه مشير وألا يوردوا على ضعفائنا ومن قصَّر نظره منا شيئا إلا والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد مذلتْ به » (١٥) .

وأخيرًا أختم هذه الكلمة بما قاله القاضي ابن أبي دؤاد في الجاحظ حين أُتي إليه به مقيّدا بعد الإيقاع بغريمه ابن الزيات (الذي كان الجاحظ منحازا إليه على حين كان منقبضا عن مجالس القاضي) ، إذ مال ابن أبي دؤاد على أحد الحاضرين قائلاً له :

« أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه » (١٦) ، كما قال للجاحظ ذاته حين أخذ يدفع عن نفسه ما اتهمه به من كفران النعمة : « قبّحك الله ! ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام . وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه الكفر والنفاق » (١٧) ، إذ لعلّ بعض الناس يسارع إلى كلام ابن أبى دؤاد متخذا منه دليلاً على فساد دين الجاحظ وصحة ما قاله فيه ابن قتيبة . والحق أن ابن أبى دؤاد إنما قال ذلك على سبيل التظرف والمداعبة . وليس أقوى برهانا على ذلك من أنه قد دعا بالحدّاد من فوره ليكسر قيود أبى عثمان ، ثم أمر غلامه أن يصير به إلى الحمّام ويُميط عنه الأذى وأن يعطيه تخْت ثياب وعباءة وخُفًّا . ثم لمّا عاد الجاحظ من الحمّام أجلسه فى صدر مجلسه وأقبل عليه قائلاً : « هات الآن حديثك يا أبا عثمان » (١٨) . وقد كان ابن أبى دؤاد من رؤوس المعتزلة ، ولا يُعقل أن يكون رأيه سيّئا حقا فى واحد من أهم ألسنة الاعتزال .

وفى الصفحات التالية سوف نقوم بعرض شبهات النصارى التى أوردها الجاحظ فى رسالته ونناقشها تفصيلاً ، مستعرضين أحيانا بعض أصدائها عبر العصور ومتوسعين فى الرد عليها وتبيين عوارها ، مع الاعتماد أولاً وقبل كل شىء على مقالات اليهود والنصارى أنفسهم .

الهوامش

١- انظر « رسائل الجاحظ » / تحقيق عبد السلام هارون / ٣ / ١٣

٢- انظر القاضي عبد الجبار / تثبيت دلائل النبوة / تحقيق د. عبد الكريم عثمان / ١ / ١٩٨

٣- انظر مقدمة د. محمد عبد الله الشرقاوي لكتاب نصر بن يحيى بن سعيد « النصيحة الإيمانية في فضيحة ملة النصرانية » / ٣١

٤- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٣ - ٣٠٨

٥- المائدة / ٨٢ - ٨٥

٦- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٨ - ٣١١

٧- ابن قتيبة / تأويل مختلف الحديث / ٥٩

٨- السابق / ٥٩ - ٦٠

٩- كذلك ليس في الرسالة رد على الشبهة التي أثارها مفسرو عصره حول عيسى عليه السلام

١٠- انظر « معجم الأدباء » لياقوت الحموي / ١٦ / ٧٦ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١١- المائدة / ٩٠

١٢- البقرة / ٢١٩

١٣- انظر أسماء هذه الكتب في « معجم الأدباء » ١٦ / ١٠٩

١٤- د. عبد الحليم محمود / المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي مع بحوث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي / ١٢٨

١٥- رسائل الجاحظ / ٣ / ٢٤٩ - ٢٥٠ وما بعدها تكلمت به وادعته

١٦- معجم الأدباء / ١٦ / ٨٠

١٧- السابق / ١٦ / ٧٩

١٨- السابق / ١٦ / ٨٠

٢- عبادة مريم

وبدأ بأولى الشبهات التي ذكرها الجاحظ ، وهي قول النصارى إن الدليل على بطلان القرآن الكريم وفساد أمر المسلمين « أنا (نحن المسلمين) ندّعي عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأنا نزعم ان الله جل وعزّ قال في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ » (١) ، وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله في سرهم ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم » (٢) وهذه الشبهة مما لم أجد للجاحظ ردًّا عليها في الرسالة التي بين أيدينا ، ولا أدري لماذا .

وفي « دائرة المعارف الإسلامية » Encyclopaedia of Islam » نجد كاتب مادة « مريم » يجهد نفسه في إثبات أن القرآن قد أخطأ حين جعل النصارى يتخذون مريم إلهة ، إذ قال إن الرسول ربما تأثر في تصوره ذاك بما تُوليه الكنيسة لمريم من تبجيل أو ربما كان ذلك منه استنتاجًا أساسه الخلط بين عيسى والروح القدس ، مما ترتب عليه حلول موضع من المواضع في الثالوث بدت له مريم جديرة بشغله (٣) .

وقد كنت قرأت ، فيما أذكر الآن ، لمستشرق بريطاني قسيس ينكر ما جاء في هذه الآية ، ويؤكد أنه لم يحدث من عند النصارى مريم في أي وقت من الأوقات ولم يكتف بهذا بل اتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه إنما كان يستقي مثل هذه المعلومات عن النصرانية من العوام والجهلة ، الذين لا يوثق بهم ولا يعول على ما يقولون

كذلك فقد كتب الأنبا شنودة في أواخر عام ١٩٧٠م ، قبل أن يتولى البابوية ، مقالاً عن « القرآن والمسيحية » ذكر فيه الآية القرآنية التي نحن بصددها ، وأنكر بقوة أن تكون المسيحية قد قالت في يوم من الأيام بألوهية العذراء ، ثم مضى قائلا إنه « إذا كانت قد قامت بدعة تنادي بتأليه العذراء ، فإن المسيحية تحاربها بكل قوة » (٤) .

كما جاء أيضا في مادة « مريم » في « الموسوعة العربية الميسرة » أنها ليست موضوع عبادة عند النصارى لأن العبادة للخالق وحده (٥) ومن الواضح أن كاتب هذه المادة قد أراد تكذيب القرآن من طرف خفي ، وإلا فما الذي دعاه إلى هذا القول إن لم يكن النصارى قد عبدوها وألهوها ؟

والواقع أن الآية القرآنية الكريمة لم تقل الحقيقة وأن كل من

يعترض عليه ، و يحول لرها انما هو المطل وقد ذكر ابن البطريق ، وهو مؤرخ نصراني شديد التعصب ، أن من النصارى من كان يقول إن المسيح وأمه الاهان من دون الله ، وهم طائفه « المربرانية » (٦)

وفي مادة « Mary the Virgin » من « Dictionary of the Bible » (٧) ، وهو معجم للكتاب المقدس شديد الصحة اشترك في تاليفه علماء متخصصون غربيون ، وفيهم كثير من رجال الدين ، نجد انه كان من النصارى طوائف تعبد مريم مع المسيح عليه السلام .

بل انه حتى في « دائرة المعارف الإسلامية » نجد كاتب مادة « مريم » ، وهو بعض المستشرق الذى خطّأ القرآن في هذه المسألة ، يعترف بأنه كان هناك فعلاً من النصارى من يعبدون مريم ويتخذونها إلها جاعلين منها اقنومًا من أقانيم الثالوث (٨)

وفي مادة « Mary » في « موسوعة الدين والاخلاق : Encyclopaedia of Religion and Ethics » كلام كثير عن شعائر العبادة لمريم ، وكيف نشأت هذه العبادة ثم تطورت على مر العصور عند الكنائس النصرانية المختلفة ، وكيف تُرفع الصلوات إليها ويطّلب منها ما ينبغي ألا يطلب من غير الله سبحانه ، ويَخلع عليها من الصفات ما هو من حقه تعالى وحده .. إلخ (٩)

وفي « الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica » أيضا حديث عن عبادة النصارى لمريم عليها السلام بوصفها « الاله » اذ يصلون لها ويسجدون لها ويتجهون اليها بالدعاء والمطالب المختلفة لتحققها لهم (١٠) .

وفي « موسوعة كولييه Collier's Encyclopaedia » نقرأ النص التالي ، وهو غني عن اي تعليق « وقد ترتب على كون مريم أم الاله انها فاقت في النبل جميع البشر ، واحتلت من حيث القداسة المكانة التالية مباشرة لابنها الاله . وقد كرمتها الكنيسة وميزتها بتمجيد خاص يختلف عن ذلك الذي خلعته على القديسين الآخرين وكذلك بالعبادة ، التي هي من حق الله وحده ... الخ » (١١) .

وقد اكد ول ديورانت « ان المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها ... وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية الى طقوس القداس الخفية الرهيبة ... (و) جاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ... ومنها جاءت عبادة ام الطفل ... ومن فريجيا جاءت عبادة الام العظمى وقصارى القول ان المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم » (١٢) .

ويذكر رجل دين نصراني هو القمص زكريا ابراهيم « ان هذه

لمرقة (يقصد الفرقة التى تعبد مريم) ظهرت فى القرن الخامس الميلادى وكان أصحاب هذه البدعة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية ، وكانوا فى وثنيتهم يعبدون الزهرة ويقولون عنها « ملكة السماء » وعندما اعتنقوا المسيحية حاولوا التقريب بين ما كانوا يعبدون وبين العقيدة المسيحيه ، فاعتبروا مريم ملكة السماء و الهة السماء بدلا من الزهرة ، ولذلك أطلقوا على نفسهم اسم المريميين » (١٣)

وقد ذكر هذه الفرقة أيضا مؤلف نصرانى آخر هو زكى شنودة فى كتابه « تاريخ الاقباط » (١٤) .

وهذا الذى يقوله أهل البيت العالمون بخبايا وخفاياه لم يكن يجهله علماء الإسلام منذ وقت جد مبكر . فهذا قتادة ، وهو من التابعين ، يقول : « اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم ، فامتروا فى عيسى حين رُفع . فقال بعضهم : هو الله ، هبط إلى الارض فاحيا من أحيا وأمات من امات ثم صعد إلى السماء . وهم اليعقوبية فقال الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث قل أنت فيه . قال هو ابن الله . وهم النسطورية . فقال الاثنان : كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه . قال : هو

ثالث ثلاثة ، الله إله ، وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . فقال الرابع : كذبت ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون . فكان لكل رجل أتباع على ما قالوا ، فاقتتلوا فظهروا على المسلمين » (١٥) . وقتادة يشير في كلامه هذا إلى المؤتمرات العقدية التي كان يعقدها النصارى في القرون الأولى من تاريخهم والخلافات التي كانت تنشب بين بطاركتهم في هذه المؤتمرات وكيف انتهى الأمر إلى تسلّط الاتجاه الوثني على عقيدة الموحدين .

وقد تحدث عن ذلك الراهب الإسباني أنسلم تورميدا ، الذي ترك النصرانية ودخل في دين التوحيد وسُمّي عبد الله الترجمان ، إذ يقول عن أهل ملته الأولى إنهم « يؤمنون بأن الله ، تعالى عن قولهم ، ثالث ثلاثة ، وأن عيسى هو ولد الله ، وأن له طبيعتين ، ناسوتية ولاهوتية ، وهاتان الطبيعتان صارتا شيئا واحدا فصار اللاهوت إنسانا مُحْدثا تاما مخلوقا ، وصار الناسوت إلها تاما خالقا غير مخلوق وبعضهم يقول : الثلاثة هم الله تعالى وعيسى ومريم » (١٦) .

وقد ذكر هذه الفرقة أيضا ابنُ حزم ، وقال (مثلما قال ابن البطريق من قبل) إن اسمها « المريمانية » . كما أشار إلى ان النصارى يسجدون (فيما يسجدون له من تماثيل) لتمثال مريم

ويصومون له تدينا (١٧) .

كما أورد بعض علماء المسلمين ما يدعوها به النصارى في صلواتهم مثل : « يا والدة الإله العذراء ، اسعىّ فى خلاصنا وافرحى يا والدة الإله . مباركة أنت فى النساء ، ومباركة ثمرة بطنك ، لأنك ولدت لى مخلّصا يا والدة الإله مباركة لا تغفلى عن وسيلتنا . ونحن من المعاطيب فى هذه الصلاة » ، وغير ذلك (١٨) .

وفى كتاب « المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندى والدكتور القسيس فندر » أنه كانت هناك فى القرون الأولى من تاريخ النصرانية فرقة تسمى « كولى رى دينس » تقول إن الآلهة ثلاثة : الأب والابن ومريم ، وأن هذا القول ربما كان مكتوبا فى إنجيلهم (١٩) ويبدو أنها هى الفرقة التى ذكرها محمد حميد الله كما سنرى بعد أسطر قليلة .

ويقول عبد الله يوسف على العلامة الهندى وصاحب الترجمة الإنجليزية الشهيرة للقرآن الكريم إن عبادة مريم ، التى ألغاها البروتستانت ، كانت واسعة الانتشار بين النصارى الأوائل فى المشرق والمغرب (٢٠) كذلك ذكر محمد حميد الله ، فى ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم تعليقًا على آية سورة « المائدة » التى يدور الكلام

في هذه الصفحات حولها ، أن الإشارة في الآية خاصة بطائفة الـ [illegible] «Coll[illegible]» وخرافتهم بأنهم يضعون مريم في مرتبة أعلى من مرتبة البشرية (٢١)

والخلاصة أن القرآن حينما ذكر أن هناك من يعبدون مريم إنما يقرر حقيقة تاريخية لا سبيل الى الشك أو المراء فيها ، أما الذين يعترضون على ذلك ويكذبونه ، بصريح القول أو بالغمز فيه ، فإن اعتراضهم هذا لا يغني من الحق شيئا ، وسواء بعد ذلك أكان النصارى هم الذين يعبدونها أم أن فرقة ضالة لا تعد منهم ، كما يدعي البعض ، هي التي كانت تقول هذا (٢٢) ، ذلك أن القرآن لم يتعرض لتحديد الطائفة الفرعية ، إذ كل ما قاله هو أن من الناس من كان يتخذ عيسى وأمه إلهين من دون الله ، مكتفيا بالإشارة الى فريتهم التي يرددونها دون أن يهتم بتصنيفهم

الهوامش

١- المائدة / ١١٦

٢- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٠٢ - ٣٠٤

3- E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam . Vol. V, p. 311

٤- الأب شودة / مقال « القرآن والمسيحية » / مجلة « الهلال » المصرية / ديسمبر ١٩٧٠ م / ٢٦

٥- الموسوعة العربية الميسرة / ١١٨٩

٦- انظر ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ١ / ١٧١ - ١٧٢ و ٣ / ٢٢ ، ود. علي عبد الرحمن وافي / الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام / ١٠٧

7 - Dictionary of the Bible . ed. by William Smith . London . 1863

8 - E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam . Vol. V . p. 311 .

9 - Encyclopaedia of Religion and Ethics . ed. by James Hastings . Vol. 8 . pp. 474 - 480 .

10 -Encyclopaedia Britannica - Macropaedia . 15th ed . Vol. 11 . pp. 560 - 562

11- Collier's Encylopaedia . Vol. 15 . p. 470

١٢- ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ١١ / ٢٧٥-٢٧٦

١٣- القمص زكريا إبراهيم / الله واحد في الثالوث المقدس / ٤١

١٤- انظر د. رءوف شلبي / يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء / ٢١٢

١٥- « تفسير القرآن » لعبد الرزاق بن همام الصنعاني / تحقيق د. مصطفى مسلم / ٢ / ٨ ، وتفسير ابن كثير / ٣ / ١٢٢

١٦- أبو محمد عبد الله الترجمان الميورقي / تحفة الأريب في الرد على أهل

المصنف / دراسة وتحقيق وتعليق عمر وفيق الداعوق / ١٣٩ - ١٤١

١٧- انظر « الفصل في الملل والأهواء والنّحل » / تحقيق د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة / ١ / ١١٠ ، و ٢ / ٢٠٥

١٨- القرافي / الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة / تحقيق د. بكر زكي عوض / ٢٥٦ - ٢٥٧ . وانظر ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ٣ / ١٩٢ . وكذلك ابن قيم الجوزية / هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / تعليق مصطفى أبو النصر الشلبي /٢٦١ - ٢٩٢ .

١٩- انظر « المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندي والدكتور القسيس فندر » / تحقيق د. محمد عبد القادر خليل / ٢٧١ - ٢٧٢

20 - Abdullah Yusuf Ali , The Holy Quran , 280 , n. 829
21 - Muhammad Hamidullah , Le Saint Coran , p. 161

٢٢- مثلما رأينا عبد المسيح زكريا إبراهيم . وممن الذين ادعوا هذا أيضا إسكندر عبد المرشد الروحاني لمركز الشبيبة في لبنان (انظر إبراهيم سليمان الجبهان / معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير / ١٤١ - ١٤٢)

٣- عُزَيْر

ويزعم النصارى أن من الأدلة على بطلان القرآن الكريم ادعاءه على اليهود القول بأن عُزَيْرًا ابن الله ، مع أن اليهود لو كانوا قالوا ذلك ما جحدوه من دينهم ولا أنكروا قولهم إياه (١) .

والذى ورد فى القرآن عن هذا الموضوع هو قوله جل شأنه :

« وقالت اليهود : عُزَيْرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله ! أنى يُؤْفكون ؟ » (٢) . وسبب نزول هذه الآية فيما يختص باليهود أن بعض زعمائهم قد أتوا النبى صلى الله عليه وسلم يحاجونه ويذكرون السبب الذى يمنعهم من قبول ما يعرضه عليهم من الدخول فى الإسلام ، قائلين : « كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟ » (٣) .

ومن هذا يتبين أن الذين قالوا بذلك كانوا من يهود المدينة وأن القرآن قد سجّل ذلك عليهم وقد سمع أولئك اليهود بما نعاه عليهم القرآن وحرسوا ولو أنهم لم يقولوا هذا لاعترضوا على النبى عليه السلام ولشنّعوا عليه وعلى القرآن الكريم ، إذ إن هذه فرصة ثمينة بل سيف بتار قاتل ما كانوا ليهملوه بل بالحرى كانوا يمتشقونه ليطعنوا

به الدين الجديد طعنة محلاء تكفل لهم الانتصار عليه في الحرب النفسية المتجهة التي كانوا يشنونها على محمد صلى الله عليه وسلم .

فالزعم إذن بأن اليهود قد انكروا ذلك هو زعم باطل ، فهم لم ينكروه ولو كانوا قد أنكروه لتحدث عنه القرآن أو لرويته على الأقل الأحاديث وكتب التاريخ ، كما حدث مع عدي بن حاتم ، الذي أبدى دهشته لقول القرآن ، عقب الآية السابقة مباشرة ، عن أهل الكتاب إنهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، فبيّن النبي عليه السلام أنهم قد حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم ، وهذه هي عبادتهم إياهم (٤) ومعروف ان بولس قد نسخ شريعة التوراة (٥) ، وأن كتبة الأناجيل قد ادعوا ان المسيح قد جعل ما يحله رسله على الأرض محلولا في السماء وما يربطونه على الأرض مربوطًا في السماء (٦) كما ان الباباوات كانوا يبيعون لرعاياهم صكوك الغفران ، والغفران هو من أخص خصائص الله سبحانه وما زال النصارى حتى الآن يذهبون إلى القساوسة ليعترفوا لهم بما اجترحوه من مآثم فيغفروها لهم ومن أكثر النسوة والفتيات اللاتي يقصدن القسيس في الكنيسة على انفراد فيخلو بهن في حجرة الصامت المظلم ويسمع منهن تفصيلات الفواحش

التى يفترفها دون حياء من الطرفين ! ودعنا مما يمكن أن يحدث فى مثل هذه الظروف المثيرة المريبة كما أن النصارى يسجدون لتماثيل قديسيهم ويصومون لهم . أما اليهود فقد أجمع أحبارهم مثلا على أن من يشتم الله أو الأنبياء يؤدب ، أما من يشتم الأحبار فيُقْتل (٧) وفى التلمود أن خلافًا علميا وقع بين الله وأحبار اليهود حكم فيه أحد الحاخامات لصالح الأحبار ، واعترف الله بخطئه (٨) ، وأنه سبحانه يستشير الحاخامات عندما تقابله مشكلة (٩) ، وأن مخافة الحاخامات هى بمثابة مخافة الرب نفسه (١٠) . علاوة على تبديل التلمود كثيرا من شرائع التوراة ... إلخ .

وقد ذكر الجاحظ أن فريقا من بقايا القائلين ببنوة عُزَيْر لله سبحانه كانوا لا يزالون فى عصره باليمن والشام وداخل بلاد الروم (١١) . وقد ورد عند ابن حزم أن الذين كانوا يقولون ذلك هم طائفة الصدوقيين باليمن (١٢) وكانت بينه ، رحمه الله ، وبين مواطنه ابن النغريلة اليهودى مجادلات من هذا النوع ، فلم لمْ يكذّبه فيما قاله من أن طائفة من بنى دينه تدين ببنوة عزير لله ؟ وقد رأينا قبل قليل كيف أن النصارى الذين يعملون على تخطئة القرآن ، ومنهم قساوسة ومبشرون متبحرون فى دينهم ، مازالوا يدّعون أنه لا يوجد

نصرانى واحد يعبد مريم ، وذلك رغم ثبوت صحة ما قاله القرآن الكريم فى هذا الصدد. وقد أسلم عدد من يهود المدينة على يد النبى عليه السلام ولم يحدث أن احدا منهم قد استغرب هذه الآية أو استوضحها النبى مجرد استيضاح .

وقد جاء فى الروايات أن ابن عباس باحث يومًا عبد الله بن سلام (وهو يهودى أسلم عقب هجرة النبى عليه السلام إلى المدينة) فى قول الله تعالى : « وقالت اليهود : عُزيْرٌ ابنُ الله » وسأله : لم قالوا ذلك ؟ فذكر ابن سلام ما كان من كتابة عزير التوراة لبنى إسرائيل من حفظه وقول بنى اسرائيل حينذاك . لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب . أما عزير فقد جاءنا بها من غير كتاب ، فغلتْ فيه طوائف منهم وقالوا إنه ابن الله (١٣) .

وقد أقرّ القسيس الذى ناظره فخر الدين الرازى فى أمر الإسلام والنصرانية بأن بعض اليهود قد قال ذلك فعلاً وكل ما عقّب به هو أنه « لا يلزم من قول واحد فى وقتٍ ما قول الجميع فى جميع الأوقات » (١٤) . وقد وضح الرازى له أن قوله تعالى . « وقالت اليهود : عزيرٌ ابن الله » لا يقتضى فعلاً أن يكون إخبارًا عن الكل ولا فى كل وقت (١٥) وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول

اليهم يراد به بعضهم لا كلهم. وذكر رشيد رضا أن القاعدة في الأقوال والأفعال المسندة في القرآن إلى جملتهم وعم أنها صادرة عن بعضهم فقط هي الاشارة الى ان الأمة تُعد متكافلة في شؤونها العامة ، وأن ما يفعله بعض الفرق والجماعات أو الزعماء يكون له تأثير في جملتها ، وان المنكر الذي يفعله بعضهم يؤاخذ الجمهور به ما داموا لم ينكروا عليهم أو يحاولوا ازالته ، وذلك مثلما يصيب الوباء مجموع الناس ولا يقتصر على مرضاه الأصليين (١٦) على أنه يمكن ان تكون الالف واللام الداخلة على لفظة « اليهود » في الآية السابقة هي « ال » العهدية لا الجنسية ، ويكون اليهود فيها من ثم يهودا معينين ، وليس كل اليهود ، أو يكون الكلام على التوسع كما يحدث كثيرا في مثل هذه الحالة .

وفي « تفسير عثماني » (باللغة الأوردية) للعلامة شبير احمد عثماني أن عالما هنديا اسمه الحاج أمير شاه خان لقي في فلسطين ، أثناء زيارته لها (قبل بضع عشرات من السنين) ، بعض اليهود ممن ينتمون إلى فرقة اسمها « العُزَيْرِيّون » لا تزال تعتقد ان عزيرا ابن الله (١٧) وقد رأينا قبل قليل ما ذكره ابن حزم من ان الذين كانوا يقولون ذلك كانوا يعيشون في اليمن وهذا وذاك

يؤكدان ما جاء عند الجاحظ من أن بقاياهم كانوا باليمن والشام وبلاد الروم

وقد ذكر د. عبد المنعم الحفني في « الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية » جماعة اليهود الذين يزعمون أن عزيرا هو ابن الله ، وهم طائفة الصدوقيين (١٨) .

ولعلّ بعض الناس يستغربون ان يكون من اليهود من ينسب لله ابن ، اذ المشهور أن الذين يقولون بذلك إنما هم النصارى ، أما اليهودية فديانة توحيد . ولكن الحقيقة ليست كذلك ، لأنه إذا كان النصارى قد ادعوا أن المسيح ابن الله فإن اليهود قد ادعوا هذه البنوة لأكثر من شخص . وما عُزَيْر إلاّ واحد من هؤلاء ، وقد ذكره القرآن بالاسم لأن بعض يهود المدينة قد عيّنوه في جدالهم مع النبي صلى الله عليه وسلم تعيينا .

ومن ذلك ما جاء في العهد القديم من « أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا وبعد ذلك .. دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً » (١٩) . كما نسب مؤلفو هذا الكتاب إليه سبحانه زورا قوله لبني إسرائيل : « أنتم أولاد للرب إلهكم » (٢٠) ، وكذلك قوله عن

إسرائيل إنه « ابنه البكر » (٢١) وفي سفر « أيوب » نقرأ أنه قد « جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب » (٢٢) ، و « ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله » (٢٣) ويقول كاتب المزامير (٢ / ٧) إن الله قال لداود : « أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك » . وتجعل الآية ٢٦ من المزمور السابع والثلاثين لله نسلاً وتتكلم الآية ٧ من المزمور التاسع والثمانين عن « أبناء الله » وفي المزمور التاسع والثمانين يقول الله عن داود عليه السلام فيما يزعمون : « هو يدعونى أبى أنت ... أنا أيضا أجعله بكْرا أعلى من ملوك الأرض » (٢٤) . وفي « إشعياء » يضعون على لسان الله الكلام التالى : « لأنه يُولد لنا ولد ونُعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام » (٢٥) . ويبتهل إشعياء لله قائلاً : « اين غيرتك وجبروتك . زفير أحشائك ومراحمك نحوى امتنعت فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل . أنت يا رب أبونا وليّنا منذ الأبد اسمك » (٢٦) . وفي سفر « إرميا » يقول كاتبه مسندا الكلام إلى الله تعالى : « صرتُ لإسرائيل أبًا ، وأفرايم هو بكرى » (٢٧) . وفي « هوشع » يوصف بنو إسرائيل بأنهم :

« أبناء الله الحق » (٢٨) وفي التلمود أن أرواح اليهود تتميز عن سائر أرواح البشر بأنها جزء من الله مثلما أن الابن جزء من أبيه (٢٩) وغير ذلك كثير وقد سجل القرآن زعمهم (هم والنصارى) أنهم « أبناء الله وأحباؤه » (٣٠)

ولم يكتف اليهود بأن جعلوا لله أبناء ، بل جعلوا له سبحانه أيضا زوجة ، إذ جاء في المزمور الخامس والأربعين حسب الترجمة التي كانت تحت يد ابن حزم ، رحمه الله ، قول صاحب المزامير يخاطب الله تعالى « وقفت زوجتك عن يمينك وعقاصها من ذهب أيتها الابنة اسمعي وميلي بأذنيك وانسي عشيرتك وبيت أبيك فيهواك الملك وهو الرب والله ، فاسجدي له طوعا » (٣١) وقد غير مترجمو البروتستانت في العصر الحديث ذلك فحذفوا كلمة « زوجتك » ووضعوا مكانها لفظة « الملكة » ، كما استبدلوا بعبارة « وهو الرب والإله » قولهم : « لأنه هو سيدك » (٣٢) ومع ذلك فمازلنا نقرأ في العهد القديم مثل هذا الكلام .

من ذلك ما نسب إليه تعالى في « إرميا » ٣١ / ١ - ١٠) يخاطب الأمة اليهودية : « إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر هل يرجع إليها بعد . ألا تتنجس تلك الأرض

بحاسة . أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين . لكن ارجعي إلي ،
يقول الرب . ألست من الآن تدعينني يا أبي أليف صباي أنت
وقال الرب . هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل . انطلقت إلى كل
جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك . فقلت بعدما فعلت كل
هذه ارجعي إلي . فلم ترجع . فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذ زنت
العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها لم تخف الخائنة يهوذا
أختها بل مضت وزنت هي أيضا . وكان من هوان زناها أنها نجست
الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر . وفي كل هذا أيضا لم ترجع إلي
أختها الخائنة يهوذا بكل قلبها بل بالكذب ، يقول الرب »

ومثله ما زعم ، في سفر « حزقيال » (١٦ : ٧ - ٣٧) ،
أنه تعالى قد قاله أيضا لأمة اليهود : « جعلتك ربوة كنبات الحقل
فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان . نهد ثدياك ونبت شعرك وقد كنت
عريانة وعارية . فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب . فبسطت
ذيلي عليك وسترت عورتك وحلفت لك ودخلتُ معك في عهد ، يقول
السيد الرب ، فصرت لي ، فحممتك بالماء . . ومسحتك بالزيت
وألبستك مطرزة ونعلتك بالتخس وأزرتك بالكتان وكسوتك بزا وحليتك
فوضعتَ أسورة في يديك وطوقا في عنقك . ووضعتَ خزامة في أنفك

وأقراطاً في أذنيك وتاج جمال على رأسك. فتحليت بالذهب والفضة

ولباسك الكتان والبز والمطرز. وأكلت السميذ والعسل والزيت وجمُلْت

جداً جداً فصلحت لمملكة ... فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك

وسكبت زناك على كل عابر فكان له. وأخذت من ثيابك وصنعت

لنفسك مرتفعات موشاة (٣٣) وزنيت عليها. أمر لم يأت ولم يكن

وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي ومن فضتي التي أعطيتك وصنعت

لنفسك صور ذكور وزنيت بها . في رأس كل طريق بنيت مرتفعتك

ونجست جمالك وفرجت رجليك لكل عابر وأكثرت زناك ... أيتها الزوجة

الفاسقة تأخذ أجنبيين مكان زوجها. لكل الزواني يعطون هدية. أما

أنت فقد أعطيت كل محبيك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب

للزنا بك ... »

وفي « هوشع » (٢ : ٢ - ١٦) ينسب الكاتب إلى الله

سبحانه الكلام التالي : « حاكموا أمكم حاكموها لأنها ليست امرأتي

وأنا لست رجلها لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها

لئلا أجردها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها ... ولا أرحم أولادها لأنهم

أولاد زنى ، لأن أمهم قد زنت ... لأنها قالت أذهب وراء محبي الذين

يعطون خبزي ومائي صوفي وكتاني وأشربتي ... فتقول أذهب وأرجع إلى

رجُلي الأوّل لأنه حينئذ كان خيرٌ (٣٤) لي من الآن وهي لم تعرف أني أعطيتها القمح والمسطار والزيت وكثّرتُ لها فضة وذهبا جعلوه لبعل لذلك ارجع وآخذ قمحي في حينه ومسطاري في وقته وانزع صوفي وكتاني اللذين لستر عورتها والآن أكشف عورتها ولا ينقذها احد من يدي واخرّب كرمها وتينها اللذين قالت هما اجرتي التي اعطانيها محبّي واعاقبها على أيام بعليم التي فيها كانت تبخّر وتتزين بخواتمها وحليها وتذهب وراء محبّيها وتنساني انا . يقول الرب لكن هاأنذا اتملقها واذهب بها الى البرية والاطفها واعطيها كروم من هناك ويكون في ذلك اليوم ، يقول الرب ، انك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعد بعلي »

ان الانسان ، حينما يقرأ هذا الكلام ، لا يتمالك نفسه من الرثاء لمثل هذا الزوج الواله المسكين الذي مرغت زوجته الزانية الخئون شرفه في الرغام ، ولكنه لا يستطيع عنها سلوا رغم كل سبابه القبيح لها وتهديداته اياها بالهجر والفضيحة !

وقد حدد ارثر هرتزبرج (في كتابه « Judaism ») الزمان والمكان اللذين تم فيهما عقد الزواج بين الله واسرائيل حسب افتراءات اليهود فقال ان ذلك كان في سيناء حين تجلى الله لموسى وتم

إسرائيل وأضاف أن السماوات والأرض كانت شهود ذلك العقد (٣٥) ويقول ول ديورانت ان « نشيد الانشاد » المنسوب لسليمان (وهو نشيد يفوق قصائد الشعراء الداعرين في غزليه واثارته للشهوات واغرائه بالفجور) هو في اعتقاد اليهود ترنيمة موحاة من السماء لتصور تصويرا مجازيا اقتران يهوه باسرائيل عروسه المختارة (٣٦)

هذا عن بنوة عزير لله التي ادعاها له فريق من اليهود وحكاها عنهم القرآن الكريم لكن من عزير هذا ؟ الشائع بين المفسرين والمؤرخين المسلمين (٣٧) أنه عزرا . الذي يقول بعضهم إنه كان نبيا ، وبعضهم انه مجرد كاهن او كاتب واغلبهم ينسبون اليه انه هو لدى عاد كتابة التوراة بعد تلفها وبعضهم . كاليعقوبي ، يقول إنه حفر عنها في بئر كانت مطمورة فيه واستخرجها وسحبها من حديد مع كتب الأنبياء الاخرى

ويقول سبينوزا (في كتابه « رسالة في اللاهوت والسياسة ») إن عزرا هذا جمع الروايات المختلفة من الكتب و المأثورات الشعبية المتداولة على الألسن ونسخها دون تحقق او ترتيب . ومن هنا جاءت النصوص في معظم كتب العهد القديم مغموضة ومتعارضة ، لأن

مصادر متعددة ولأن الكتاب الذين كانوا يعملون في جمعها تحت إشرافه لم يطلع أي منهم على ما كتبه الآخرون (٣٨) ويؤكد د. فؤاد حسنين على أن العهد القديم لم يُجمع كله على يد عزرا بدليل وجود أسفار فيه متأخرة عن زمنه كسفر دانيال (٣٩)

ب السموأل بن يحيى المغربي (وهو حبر يهودي أندلسي كان يعيش في القرن السادس الهجري ودخل في الإسلام) فإنه يحمل على عزرا حملة شديدة وينفي أنه هو عزير الذي ورد ذكره في القرآن الكريم. قال « كان عزرا هذا خادما لملك الفرس حظيا لديه فتوصل إلى بناء بيت المقدس وعمل لهم هذه التوراة التي بأيديهم. فلما كان هارونيا كره أن يتولى عليهم في الدولة الثانية داودي فأضاف في التوراة فصلين طاعنين في نسب داود. أحدهما قصة بنات لوط، والآخر قصة ثامار (٤٠) ولقد بلغ، لعمري، غرضه، فإن الدولة الثانية التي كانت لهم في بيت المقدس لم يملك عليهم فيها داوديون، بل كانت ملوكهم هارونيين. وعزرا هذا ليس هو العزير كما يظن، لأن العزير هو تعريب العازار. فأما عزرا فإنه إذا عرب لا يتغير عن حاله لأنه اسم خفيف الحركات والحروف، ولأن عزرا عندهم ليس بنبي، وإنما يسمونه « عزر هوفر »، وتفسيره « الناسخ » (٤١)

لكنى ارجح انه لو كان « العازار » هو « عزيرا » لسماه القرآن الكريم « العزير » (بالألف واللام) ، كما فعل مع « اليسع » (الذى أصله « الشع ») وقد فعل السموأل نفسه ، رحمه الله ، ذلك ، فانه لم يكتبه الا بالألف واللام وفضلا عن ذلك ، فإن جميع علماء المسلمين القدامى تقريبا قد قالوا انه عزرا وعندنا رواية أوردها ابن عساكر عن عبد الله بن سلام انه هو عزرا ناسخ التوراة ، على ما جاء فى « البداية والنهاية » لابن كثير كما مر بيانه ثم ان كون عزرا نبيا او غير نبى لا يقدم فى المسألة ولا يؤخر (٤٢) واخيرا فانه اذا كان عزير هو « العازار » ، فأين العازار ذلك ؟ ولماذا نسبه اليهود لله سبحانه ؟ ان السموأل للأسف لم يجب عن هذين السؤالين المهمين برغم تبحره فى العربية والعبرية والقرآن الكريم وكتب اليهود والنصارى وقد رجح رءوف ابو سعدة ان يكون يهود المدينة الذين قالوا بنوة عزير لله قد حوروا نطق اسمه من « عزرا » (وهى صيغة المصدر من مادة « ع ز ر » بمعنى اسم الفاعل) إلى « عزير » (بالامالة ، وهى صيغة اسم الفاعل من تلك المادة) ، ثم جاء القرآن وعربها بصيغة التصغير العربية ، التى هى أقرب شىء إلى صيغة اسم الفاعل العبرية (٤٣)

أما الدكتور أحمد شلبي فانه لا يقطع بأن عزرا هذا هو عزير الورد في القرآن ، وانما يكتفي بان يقول : « يُنسب سفر عزرا الى عزرا الكاهن ، ويبدو انه عزير الذي ورد ذكره في القرآن الكريم » (٤٤) .

وفي ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم يقول د. صلاح الدين كشريد عن عُزَيْر هذا إنه هو عُزَّيا ، أحد الأنبياء العبرانيين الصغار الاثني عشر (في القرن الثامن قبل الميلاد) (٤٥) بيد أن من الصعب هذا الاقتناع بأن « عزير » هو تعريب « عَزيا »

فأمامنا إذن في عزرا ثلاثة آراء على الأقل : أنه هو عزير ، وأنه ليس إياه ، وأنه يبدو أنه هو

الهوامش

١- [illegible] ٢ / ٣ - ٤ [illegible]

٢- [illegible] ٣

٣- [illegible]

٤- [illegible] مذكور في كثير من كتب التفسير وكتب أسباب النزول عند تناول هذه الآية

٥- [illegible] " رسائل بولس " في العهد الجديد في مواضع متعددة منه

٦- انظر متى ١٦ / ١٩ - ٢٠ ، و ١٨ / ١٨ ، ويوحنا / ٢٠ ٢٣

٧- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل / ١ / ٢٢٥

٨- إبراهيم خليل أحمد / إسرائيل والتلمود / ٦٥

٩- انظر د. [illegible] الأسفار المقدسة قبل الإسلام ١٦٤

١٠- السابق ٤٩

١١- انظر " رسائل الجاحظ " ٣ / ٣٤٦

١٢- انظر ابن حزم / الفصل في الملل والأهواء والنحل ١ / ١٧٨ وانظر [illegible] " في " رسائل ابن حزم الأندلسي " تحقيق د. إحسان عباس ٣ / ٦٧

١٣- انظر ابن [illegible] / البداية والنهاية ٢ / ٤٦

١٤- [illegible] مناظرة [illegible] الرد على النصارى تحقيق د. عبد المجيد الشرفي ٣٦ - ٤

١٥- السابق ٤٧

١٦- انظر محمد رشيد رضا / تفسير المنار / ١٠ / ٣٨٣ .

١٧- العلامة شبير أحمد عثماني / تفسير عثماني (بالأوردية) ، ٢٥٣/ - ٢٥٤ . وقد ترجم لي النص من الأوردية إلى الإنجليزية مشكورا صديقي د. عادل عثماني رئيس تحرير مجلة « Pakistan Library Bulletin » ، والذي يعمل منذ سنوات مديرا لمكتبة كلية التربية (فرع جامعة أم القرى) بالطائف .

١٨- الموسوعة المذكورة / مادة « الصدوقية » .

١٩- تكوين ٦ / ٢ . ويذكر سفر « التثنية » (٣٢ / ١٩) لله بنين وبنات أيضا !

٢٠- تثنية ١٤ / ١ .

٢١- خروج ٤ / ٢٢ - ٢٣ . وفي سفر « التثنية » (٣٢ / ٧) مرتين ، إشارة إلى هذه النبوة .

٢٢- أيوب ١ : ٦ .

٢٣- أيوب ٣٨ : ٧ .

٢٤- مزامير ٨٩ : ٢٦ - ٢٧ . وقد رأينا قبلا أن ابنه البكر ، تعالى الله عن ذلك ، هو إسرائيل ، ونرى هنا قبل أنه داود ، وهو تناقض مضحك .

٢٥- أشعياء ٩ : ٦ . وواضح مدى التناقض بين تسمية المولود « ابنا » وتسميته بعد قليل « أبا أبديا » .

٢٦- أشعياء ٦٣ : ١٥ - ١٦ .

٢٧- إرميا ٣١ : ٩ . وقد مر في سفر « الخروج » قول الله ، على زعمهم ، أن إسرائيل (لا غيره) هو ابنه البكر ، كما رأينا في المزمور ٨٩ أنه هو داود ، وهو من متناقضات عهدهم القديم التي لا تكاد تحصى .

٢٨- هوشع / ١ / ١٠

٢٩- د. أحمد شلبي / اليهودية / ٢٧١ - ٢٧٢ ، وإبراهيم خليل أحمد / إسرائيل والتلمود / ٦٧

٣٠- تثنية / ١٨ ويخاطب النصارى الله في صلواتهم قائلين « أبانا الذي في السماوات » كما تكرر في الأناجيل وصفه سبحانه بأنه أبوهم

٣١- الفصل في الملل والأهواء والنحل / ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨

٣٢- انظر المزمور ٤٥ / ٩ - ١١

٣٣- في الأصل « موشاة » بالكسر وهو خطأ وكم في لغة الكتاب المقدس من أخطاء وركاكات !

٣٤- لفظة « حبر » هذه من الركاكات التي لا حصر لها في العهد القديم وهي فوق هذا خطأ ذلك أنها إن كانت « افعل تفعيل » كي تقبل مجيء « من » وراءها ، فيجب أن تنصب حتى تكون صفة أما إذ رفعت كما هي في النص فستكون اسماً لا صفة ولا يصح حينئذ أن تتعلق بها مقارنة ، ومن ثم لا تأخذ حرف الجر « من »

٣٥- انظر « اليهودية » للدكتور أحمد شلبي / ٢٦٣

٣٦- ول ديورانت / ترجمة محمد بدران / ١٤ / ١٦ ، وانظر كذلك د. أحمد سوسة / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ٥٧٥ / هـ ٤٤

٣٧- مثل الطبري والزمخشري وابن حزم والقرطبي والبغوي وابن كثير وابن عطية والقرافي والشعراوي ورحمة الله الهندي والآلوسي ومحمد رشيد رضا ومحمد الطاهر بن عاشور ... إلخ

٣٨- انظر د. صابر طعيمة / الأسفار المقدسة قبل الإسلام / ٧٤ - ٧٥

٣٩- انظر د. فؤاد حسنين علي: التوراة / ١٥ - ١٦

٤٠- تقول لبعضها الأولى [illegible] لوط كانت تعيشان مع والديهما في مكان منقطع عن الناس [illegible] سكر [illegible] معه الواحدة بعد الأخرى [illegible] من يعقوب [illegible] ٣٨ [illegible] ١٢ - ١٩

٤١- السموأل بن يحيى المغربي: إفحام اليهود / تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي / ١٥١ - ١٥٢

٤٢- في السفر المسمى [illegible] في العهد [illegible] لا يذكر [illegible] على أنه نبي [illegible] هو كاهن وكاتب

٤٣- انظر [illegible] من إعجاز القرآن - العلم الأعجمي في القرآن مفسر بالقرآن / ٢ / ٢٠٦ - ٢١

٤٤- د. أحمد شلبي / اليهودية / ٢٤٢

45- Dr Salah Ed-dine Kechrid, Al-Qur'an al Karim p 245 n 1

٤- هامان

وبالنسبة لهامان يروى الجاحظ انهم يعدون ما قاله القرآن عنه غلطا في الاخبار ودليلا على ان المسلمين يأخذون العلم عن غير الثقات ، اذ « هامان » الذي جاء ذكره في القرآن كان معاصرا لفرعون ، على حين ان هامان في العهد القديم كان يعيش في زمن الفرس (في عهد الملك احشويرش) بعد فرعون بدهر طويل وذلك ، كما يقولون ، « معروف عند اصحاب الكتب ، مشهور عند اهل العلم » .

وقد جاء في القرآن ايضا ان فرعون إنما أراد أن يبني صرحا ليصعد فيه ويرى الله وهم يقولون ان فرعون ان كان كافرا بالله فما معنى اتخاذه صرحا ليرى شيئا لا يؤمن بوجوده ؟ وان كان مقرا بوجوده سبحانه فاما ان يكون من المشبهة ، فكيف فاته ان من المستحيل بناء صرح يمتد من السماوات السبع حتى يصل الى العرش الالهي ؟ واما ان يكون من نفاة التشبيه ، فكيف يخطر على باله البحث عنه سبحانه في مكان بعينه ؟ وعلى اية حال فلم يكن فرعون مجنونا او ناقص العقل حتى يفكر في هذا الامر أصلا (١)

ويرى القارئ ، ان اصل التهمة يقوم على أن الرسول عليه السلام

هو الذي ألف القرآن ، وانه قد استفاد من الاخبار الملفقة والروايات المضطربة التي لا يعرفها التاريخ . ونحن نقول انه إذا انتفت نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فلن تكون هناك نبوة اخرى جديرة بالتصديق ، فإن اخلاقه وصدقه وامانته (برغم كل ما يرميه به الكافرون بدينه) هي افضل وازكى واقوم مما نسبت له كتاب القوم المقدس أنبياءهم ، فقد نسب اليهم هذا الكتاب الزنا والفجور وشرب الخمر والكذب والقتل وعبادة الاصنام والدياثة ومضاجعة المحارم ... الخ . ويستحيل ان يدعوا شيئا من هذا عليه صلى الله عليه وسلم بمجرد ادعاء .

وقد اشارت الى هذا الاختلاف بين هامان في العهد القديم وبين هامان في القرآن الكريم « دائرة المعارف الاسلامية » فقالت في طبعتها الاولى تحت عنوان « هامان » : « ان وضع محمد لهامان في هذه الفترة (أي في عهد فرعون) يفضح اضطراب معرفته للتاريخ ، ذلك الاضطراب الذي يوجد في القرآن امثلة كثيرة عنه . وفي الحقيقة فإن التلمود (Sanh 106) والمدراس (Exodus R. 18) يحتويان على خطأ تاريخي مشابه ، اذ يجعلان بلعام وايوب ويثرون جميعا اعضاء في مجلس شورى فرعون ، الذي كان من رأيه التخلص من موسى . وهناك نص آخر في المدراس (Num R. 22) يصف هامان

وقارون بأنهما اعتى رجلين فى الدنيا » (٢) أما فى الطبعة الجديدة التى مازالت تصدر حتى الآن فقد خفت حدة الهجوم على القرآن واختصرت المادة إلى حد كبير (٣) ولعل ذلك بداية التراجع عن انتقادهم للرسول الكريم عليه السلام والكتاب الذى انزل عليه فى هذه النقطة

كذلك اشار الى هذا الاختلاف القس توماس باتريك هيوز فى كتابه « Dictionary of Islam » ، اذ قال : « يظن بعض النقاد الاوربيين ان محمدا قد خلط بين هامان ، الذى كان وزيرا مقربا إلى الملك احشويرش وعدوا لليهود ، وزيرا لفرعون . ويقول الاحبار إن هذا الوزير هو قارون او يثرون او بلعام » (٤)

ومازال القوم يظنون انهم يستطيعون التشنيع بذلك على المسلمين وكتابهم ، فقد رددت هذه التهمة مؤخرا رسالة نصرانية فى الهجوم على القرآن الكريم تحمل اسم المجلس الملى القبطى بالاسكندرية (٥) .

وقد اصبح معروفا لكل منصف بالكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ان هذا الكتاب غير اهل للثقة ، اذ يختلط فيه الحابل بالنابل ، ويزدحم بالاخطاء التاريخية والرياضية والعلمية ، ويعج بالمتناقضات حتى فى الصفحة الواحدة فى احيان كثيرة وقد ألف فى شأن ذلك ما لا يحصى من الكتب والرسائل باقلام مفكريهم ورجال

دينهم قبل غيرهم .

ولسوف أكتفي هنا بذكر بعض ما تنبهت اليه من هذه الأخطاء والتناقضات في سفر « استير » ، وهو السفر الذي جاء فيه ذكر هامان الفارسي وزير الملك احشويرش وهذه الملاحظات هي ثمرة قراءة سريعة لهذا السفر .

وسوف أعفى عن ركاكة الاسلوب في القصة ، وبالذات الفقرة الاولى منها حيث تتعثكل الجمل في يد الكاتب وتتمزق خيوطها فيدور حول نفسه يكرر ما سبق ان قاله كي تستقيم له العبارة بعض الاستقامة . وهيهات ! ولا يعقل ان يكون مثل هذا الكلام الردىء الاسلوب وحيا من عند الله ولا يعقل ايضا ان ينزل وحي سماوي يبارك الدعارة والتوسل بها الى غزو القصور الملكية واقتناص قلوب الاباطرة والتفنن في اساليب اغرائهم وقودهم من انوفهم للوصول الى ما يراد منهم من الأغراض السياسية لا ، ليس يعقل أن توحي السماء لنبي ! ، حتى لشيطان ، مثل هذا الكلام !

ويتلخص سفر استير في أن احشويرش ملك الفرس اراد من زوجته ان تظهر معه في احد الأعياد كي يرى الناس أبهتها وجمالها وزينتها . لكن الملكة رفضت ذلك ، فما كان منه الا ان غضب عليها

وطلقها ، ونشر مرسوما في طول البلاد وعرضها بهذا . ثم زين له بعض رجال حاشيته أن يجمعوا كل من في إمبراطوريته المترامية الأطراف من عذارى فاتنات ليختار منهن من يروق له . وكان من أولئك الفتيات استير اليهودية ، التي بعد أن قضى معها الملك ليلة داعرة استحوذت على قلبه فقربها إليه وتزوجها . وكان هناك وزير لهذا الملك اسمه هامان اضطغن على مردخاي ابن عم أستير هذه دون أن يعرف بالقرابة التي بينها وبينه ، فأراد أن يهلك كل اليهود الذين بالبلاد . بيد أن مردخاي يتصل باستير ويعلمها بالمصيبة التي ستحل باليهود ، ويدبر معها مؤامرة توقع بالوزير في ما أراد أن يصنعه بمردخاي ، فيصلب هو وبنوه على نفس الخشبة التي كان قد أعدها لصلب ذلك اليهودي عليها . وينتفش اليهود في البلاد ويعملون السيف في الرقاب ويقتلون عشرات الآلاف ويجعلون من اليوم الذي نشبوا به وارتووا من الدم ، عيدا لهم يحتفلون به في كل عام . ويجعل الملك مردخاي رئيسا لوزرائه واضعا في يده كل شيء.

واستعمل طاهر في القصة أشد الظهور . ومن ذلك أن للعدد « سبعة » سيطرة على سائر عناصرها . فالملك لا يفكر في استدعاء زوجته لإبراز فتنتها وزينتها للناس إلا في اليوم « السابع » من بدء

لاحتلاف شؤونه الحكم ، وعدد الحصان في قصر الامبراطور سبعة ، وعدد مستشاري الملك (او ، كما يقول مؤلف القصة ، الحكماء العارفين بالاسرار) سبعة ، وعدد الفتيات اللاتي اصطفين للملك اصطفاء من بين آلاف العذارى الجميلات المجموعات من انحاء المملكة سبع ، ثم ان استير قد دخلت على الملك في السنة السابعة من جلوسه على العرش ، وولايات الامبراطورية مائة و (سبع) وعشرون ولاية

ويظهر التعمل ايضا في ان الملك ، حين يريد من زوجته الظهور امام الجمهور ، لا يكلمها بنفسه في ذلك بل لا يرتبه منسقا كما تقضي به تقاليد الملوك ، بل يبث هذا الخاطر في دماغه فجاة بعد ان لعبت الخمر بعقله ، أو بعبارة ملفق القصة : « لما طاب قلب الملك بالخمر » ليس هذا فحسب ، بل انه لا يجد الا خصيان لقصر ليرسلهم الى الملكة كي تحضر ، وكانها امراة من عرض الطريق أو بائعة في السوق ولا يخجل مؤلف القصة من القول بان الملك اسما راد الاتيان بالملكة وعلى راسها تاج الملك « ليرى الشعوب والرؤساء جمالها ، لانها كانت حسنة المنظر » وحدد ليست عادة ملوك الشرق ، وبخاصة في ذلك الزمن القديم وقد ابت الملكة ان تاتي ، وحق لها ولكن الملك ، على ما تقول القصة ، يستشيط غضبا

وتظل حاشية السوء توسوس له وتشجع فى أنفه مقولة فى عصبه صسبع الملكة وموحية له أنه إذ لم يطلقها فسوف تكون مثلا سيئا يغرى نسوة المملكة بعصيان ازواجهن والخروج على سلطانهم وفعلا يطلقها الملك وواضح ما يرمى اليه ملفق القصة إنه يمهد الطريق أمام استير لتعتلى العرش وتحكم ايدى قومها فى رقاب الفرس ، الذين كان اليهود يعيشون بين اظهرهم . بيد أن اصول الفن القصصى تقتضى التشويق والتطويل والوصف المدغدغ للشهوات . فنقرأ أن بعض رجال الحاشية اقترحوا على الامبراطور أن تجمع له من انحاء البلاد بولاياتها المائة والسبع والعشرين كل عذراء جميلة كى ينتخب منهن واحدة تحل محل الملكة المطلقة وللقارئ أن يتصور كم يبلغ عدد هؤلاء الفتيات ، وكيف سيكون زحامهن عندما يتجمعن كلهن فى القصر قبل أن تنتخب منهن سبع يدخلن على الملك واحدة بعد واحدة ، فى كل ليلة واحدة يقضى معها العاهل الليل بطوله ، وفى النهاية يفرز ايتهن التى تصلح له

ويقول مؤلف القصة ان الخصى الموكل بهذا الامر كان ينفق سنة كاملة فى تهيئة الفتاة لقضاء ليلتها مع الملك - ستة اشهر فى تعطيرها بزيت المر ، وستة اشهر بالاطياب والادهان وتفوز استير دون الفتيات

جميعًا بقلب الملك ويتخذها زوجة . وتكتم حقيقة يهوديتها عنه كما أوصاها مردخاي .

ويعلم مردخاي بمؤامرة كان يدبرها اثنان من خصيان الملك لقتله وتبدو سذاجة القصة في قولها إنه علم بذلك وهو جالس على أبواب القصر ، وكأن باب القصر مكان يتجمع عنده كل عاطل ليس عنده عمل يشغله ثم متى كانت المؤامرات تدبّر على باب القصور ؟ بل كيف يفكر خصيّان لا حول لهما ولا قوة ولا أتباع ولا عزوة في قلب نظام الحكم في إمبراطورية عريقة كامبراطورية الفرس ؟

على أية حال فإن مردخاي يقوم بنقل السر إلى استير ، التي تخبر بدورها الملك فيقبض على الخصيين ويحقق معهما ويصلبهما وتدون الحادثة في حوليات المملكة

وكان هامان رئيس الوزراء ، عند دخوله على الملك أو خروجه من لدنه ، يسجد له حسب أوامر الامبراطور الموظفون الذين بباب القصر أما مردخاي فقد أصر على الا يجثو أو يسجد ، رغم انه مجرد أجنبي غريب ، وفوق ذلك يهودي مستضعف ويمتلئ هامان غضبا ، ولكنه لا يفكر في الانتقام من مردخاي وحده بل من يهود المملكة جميعا ، ويعطيه الملك تفويضا مطلقا بعمل كل ما يريد بهم

ويعلم مردخاى بالأمر وكان المفروض أن يكون علمه به عن طريق الملكة ابنة عمه ، التى لابد أن يطلعها الملك على الأمر أليست زوجته ؟ أليس الملوك يتحدثون عادة أول ما يتحدثون إلى زوجاتهم ؟ لكن معرفة مردخاى بهذا القرار لم يكن عن طريق أستير ، بل كان هو الذى أعلمها به أما كيف توصل إلى إخبارها به علم فتقول القصة إنه لبس مسحا وذهب وهو يصرخ وينوح إلى باب القصر فرأته جوارى الملكة وخصيانها ، الذين أسرعوا وحكوا لها ما شاهدوا وما سمعوا

وتخطط استير ، بتحريض من ابن عمها ، لإحباط مؤامرة هامان والإيقاع به فى نفس الشرك الذى كان قد نصبه لمردخاى وقومه .

ويتصادف ، ويا للعجب ، ان يصاب الملك فى ذلك الوقت بأرق لا يجد ما يذوده به عن نفسه الا إحضار حوليات المملكة والقراءة فيها ويتصادف أن يقرأ فيها قصة المؤامرة التى دبرها له الخصيان وكشف أمرها مردخاى ويتذكر الملك عندئذ ، وعندئذ فقط ، أنه ينبغى مكافأة الرجل ويتصادف أيضا عند ذلك ، ويا للعجب ، دخول هامان على أحشويرش الذى يبادره بالسؤال عما ينبغى فعله لرجل يسر الملك أن يكرمه ويظن هامان ان الملك يقصده فيشير عليه بأن يلبسه ملابسه السلطانية ويخلع عليه تاجه ويركبه على فرس يطوف به ساحة

المدينة وأمامه الخدم ينادون ، فيأمره الملك عندئذ أن يسرع فيفعل هذا بمردخاي اليهودي ولنقارن، أن يعجب من الأسلوب الذي اتبعه الملك في اخبار وزيره بما يريد وكأنه يلعب لعبة « حاوريني يا قطيطة » ، فيلف ويدور قبل أن يصارحه في النهاية باسم الشخص المراد تكريمه انها حيلة من حيل القصص الشعبي ، وبالذات كما نعرفه في « الف ليلة وليلة » ولا ننس ان « ألف ليلة وليلة » هي في أصلها الأول عمل فارسي هندي وقد كان احشويرش ، كما جاء في قصة أستير ، ملكًا على بلاد فارس والهند جميعا .

وفي وليمة كانت استير قد اعدتها لاحشويرش ومعه هامان يعرض الملك عليها ان تطلب أي شيء تريد ، حتى لو كان ذلك نصف المملكة ، كي يحققه لها في الحال ، فتصرح بالحقد الذي يكنه هامان لشعبها ، فيقوم الملك مغتاظا ويخرج الى حديقة القصر تاركا زوجته مع وزيره ، الذي أكب عليها يستعطفها على سريرها وساعتها يعود الملك فيجده على هذا الوضع فيظن انه يراودها عن نفسها وواضح مدى السذاجة في ترتيب احداث القصة على هذا النحو الذي يشيء بتوليف به الظروف لايقاع النكال بالوزير ويأمر الملك بصلب هامان وتتمكن مردخاي وشعبه من عدائهم ، فيقتلون عشرات الألوف ممن فيهم

الاطفال والنساء ، وفى مقدمتهم هامان وأسرته ، ويستولون على أموالهم وممتلكاتهم . وفى نهاية تذكرنا بنهايات القصص الشعبية حتى انه لم يبق الا ان يقال : « وعاش اليهود فى ثبات ونبات ، وخلفوا صبيانا وبنات ! » .

فهذه هى القصة التى يريد المعترضون على كتبنا أن يحاكموه إليها . انها لا يمكن ان تكون وحيا . فليس من المعقول أن يكون موضوع الوحى مثل هذا القصص الخسيس ولا أن يكون اسلوبه بالركاكة التى أشرت اليها . وكذلك يمنع من الاطمئنان اليها كتاريخ ما فيها من تعمل زائد ومصادفات متكررة ومجافاة لمنطق العقل والأحداث . إن روح الحدوتة وحبكتها الفنية واضحان فيها اشد الوضوح .

ويشكك د. أحمد شلبى فى هذه القصة ، مؤكدا انها ليست من التاريخ فى شىء ، « انما هى اسطورة يرسم بها مؤلفها الطريق للنساء الاسرائيليات ان يتخذن من جمالهن وسيلة لخدمة بنى اسرائيل وخدمة أغراضهم » (٦) ويعزز هذا الرأى ما لوحظ من أن عزرا ونحميا (وهما من أسفار العهد القديم ، ولكل منهما سفر قص فيه أحداث السبى البابلى) لم يشيرا إلى استير ولا الى شىء مما جاء فى السفر المسمى باسمها . كما ان هيرودوت ، مؤرخ الاغريق الذى عاصر

الإمبراطور الفارسي أحشويرش وكتب سيرة حياته وحكمه . لا يذكر شيئا مما ذكرته هذه القصة (٧) ويذهب بعض الباحثين الى أن القصة يمكن ان تكون في الأصل اسطورة بابلية اخذها اليهود وحرفوها لتوائم أغراضهم ، اذ إن هامان هو اسم أحد الآلهة العيلاميين ، كما أن مردخاي هو اسم اله كلداني اما اسم أستير فليس بعيدا أن يكون تعريب للالهة عشتر (٨) (التي يُنطق اسمها ايضا « اشتار » و « أستير » و « عشتروت ») ولعل هامان الوزير المصري الذي كان يساعد فرعون في اضطهاد بني إسرائيل قد اختلط بشخصية ذلك الاله العيلامي القديم وخرجت من هذا المزيج تلك القصة التي يقصها علينا كاتب سفر أستير .

ولعل من المفيد ان نشرح للقارئ، كيف يوصي احبار اليهود شعبهم بالاحتفال بعيد البوريم ، وهي المناسبة التي تقول هذه القصة إن الله قد نجى فيها اليهود واوقع باعدائهم على يد استير ومردخاي « يقول رب رب Rab Raba ان على الانسان ان يشرب في ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم : ملعون هامان ، ومبارك مردخاي » (٩) وهي طريقة في الاحتفال تتناسب تماما مع ما في القصة من خسة وغدر ومؤامرات سياسية تحركها ادنى الشهوات والغرائز

وفى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى نجد نساء أخريات يقمن ببعض هذا الدور الذى قامت به أستير . مثل يهوديت ، الأرملة الجميلة التى لها سفر باسمها كسفر أستير فى نسخة « العهد القديم » الكاثوليكية ، وسالومى ، التى رقصت عارية أو شبه عارية لعمها الوالى بتحريض من أمها الفاجرة حتى سال لعابه وفقد عقله وهو يراها بكل شبابها وفتنتها تتلوى أمام عينيه فقدم لها رأس يحيى عليه السلام على طبق حسبما أرادت كى يخلو الجو لها ولأمها للفجور مع ذلك العم النذل ، كما جاء فى العهد الجديد

على أننا نحب ان ننظر أيضا فيما سجله العهد القديم من حداث الفترة التى سكن فيها بنو اسرائيل مصر بعد أن هاجر إليها يعقوب عليه السلام وأولاده إلى أن خرج موسى وقومه منها ذلك أن هامان قد ورد ذكره فى القرآن الكريم فى آخر حلقة من حلقات سكنى لاسرائيليين فى مصر ، وهو ما ينكره المعترضون على كتابنا المجيد بحجة انه لم يجىء له ذكر فى سفر « الخروج » فى العهد القديم ، فنريد ان ننظر فيما رواه كتاب القوم عن بنى اسرائيل فى بلاد الفراعنة لنرى مقدار ما فيه من استقامة او انحراف ونعرف إلى أى مدى يمكن الركون الى ما يقول واتخاذه مستندا تاريخيا نعوّل عليه .

وقد قرأت قصة بني إسرائيل في مصر كما جاءت في العهد القديم قراءة سريعة فخرجت منها ببعض الأشياء التي يجب عرضها على القارئ، كي يكون على بينة من أمر كتابهم المقدس الذي يريدون أن يحاكموا القرآن إليه. وقبل أن أعرض ملاحظاتي أسوق ما وجده علامة الاندلس ابن حزم العظيم في العهد القديم من خطإ فاحش وقع عند حساب المدة التي قضاها بنو اسرائيل في مصر القديمة. وذلك أنهم يقولون إن قاهات بن لاوى بن يعقوب دخل مصر مع ابيه وجده وعمره ١٣٣ سنة، وإن عمران بن قاهات عاش ١٣٧ سنة، وإن موسى بن عمران خرج مع بني اسرائيل من مصر وهو ابن ثمانين سنة (١٠) فلو افترضنا أن قاهات دخل مصر في اول حياته، وأن كلا من عمران وموسى وُلد بعد وفاة أبيه لكان مجموع السنين التي قضاها بنو اسرائيل في مصر من لدن دخول يعقوب الى خروج موسى ٣٥٠ سنة، على حين يقول العهد القديم ان مجموعها ٤٣٠ سنة (١١)، بفارق ٨٠ سنة بين الحسابين. وحتى لو اضفنا السنوات التي قضاها يوسف بمصر قبل مجيء قومه، وهي ٢٢ سنة (١٢) لظل هناك فرق ٥٨ سنة. وهذا بطبيعة الحال لو تصادف أن كان دخول قاهات مصر في مبدا حياته، وولد كل من موسى وعمران كما افترض ابن حزم

بعد موت أبيه . وهى مسامحة شديدة من ابن حزم ، إذ يصعب جدا جدا أن يتحقق ذلك (بل هو لم يتحقق فعلا) فى الواقع ، وإلا فالفرق بين الحسابين أكبر من ذلك كثيرا . والقوم هم الذين ذكروا الحسابين ، لا أحد آخر . ويقول ابن حزم تعقيبا على هذا التناقض : « ولو لم يكن فى توراتهم إلا هذه الكذبة وحدها لكفت فى انها موضوعة مبدلة من حمار فى جهله أو مستخف سخر بهم ولابد » (١٣) .

وقد وجدت تناقضا فى تعداد بنى يعقوب الذين أتوا معه إلى مصر ، إذ قيل انهم ٦٦ نفسا ، وفى السطر التالى لذلك مباشرة أنهم ٧٠ (١٤) . وهذا تناقض فاحش ، ويزيده فحشا انه فى سطرين متتاليين . والحقيقة ان العدد الصحيح . كما لاحظ ابن حزم ، لا هو هذا ولا ذاك . انما هو ٦٧ (١٥) . ويمكن القارىء التحقق من ذلك بنفسه لو قرأ الآيات ٨ - ٢٦ من الاصحاح السادس والاربعين من سفر « التكوين » .

كذلك يرى قارىء العهد القديم حينما يجد ان الأرض التى سكنها يعقوب واولاده فى مصر هى أرض جاسان مرة (١٦) ، وأرض رعمسيس مرة اخرى (١٧) .

وفي الاصحاح التاسع والاربعين من سفر « التكوين » تناقض آخر ، إذ جاء في الآية ٢٨ أن يعقوب حين دعا بنيه اليه قبيل موته باركهم واحدًا واحدًا ، بينما كان كلامه لشمعون ولاوي في نفس الأصحاح (ايات ٥ - ٧) على هذا النحو : « شمعون ولاوي أخوان آلات ظلم سيوفهما . في مجلسهما لا تدخل نفسي . بمجمعهما لا تتحد كرامتي . لانهما في غضبهما قتلا انسانا وفي رضاهما عرقبا ثورا . ملعون غضبهما فانه شديد . وسخطهما فانه قاس . اقسمهما في يعقوب وافرقهما في اسرائيل » وهذا لعمري لا مباركة . وقبيل ذلك وجه الحديث إلى راوبين ، الذي زنى باحدى سراري أبيه (١٨) ، قائلا : « ... فائرا كالماء لا تتفضل لانك صعدت على مضجع أبيك . حينئذ دنسته . على فراشي صعد » . ولا أظن هذا من المباركة في شيء . أما قوله عن راوبين نفسه في أول حديثه اليه « راوبين ، أنت بكري وقوتي واول قدرتي . فضل الرفعة وفضل العز » فهو كلام لا يمكن أن يخرج من فم نبي كريم ان صح ما يقوله العهد القديم عن اعتداء ابنه على عرضه ذلك الاعتداء الشنيع . انما هو بكلام الديوثين اشبه ، وإلا فكيف يفتخر يعقوب هذا الافتخار بذلك الابن الفاجر المعتدي على عرضه ؟

وإذا قرأت قصة ولادة موسى وما فعلته أمه بعد أن لم تستطع الاستمرار في إخفائه عن عيون رجال فرعون الموكلين بقتل الرضع من بني إسرائيل نجد أن كاتب القصة يقول إن أم موسى أخذت سفطا من البردي وطلته بالحُمر والزفت وأرقدت الطفل فيه ، ثم وضعته بين الحلفاء على حافة النهر ، حيث التقطته ابنة فرعون (١٩) . ووضع ن التابوت لم يُلقَ في الماء . وإننا لنتساءل : فلماذا طلته الأم بالحُمر والزفت ، وهما المادتان اللتان تُطلى بهما القوارب وما أشبه لمنع دخول الماء فيها حتى لا تغرق ؟ إن هذا ، لو صح أن السفط لم يُلق في الماء ، لهو تصرف يفتقر إلى المنطق والحكمة . فإذا مضينا في القراءة فوجئنا بأن ابنة فرعون تسميه « موسى » وتقول : « إني انتشلته من الماء » (٢٠) . وهكذا يتبين لنا ، مما يقوله كاتب السفر نفسه ، ن السفط كان قد أُلقي في النهر لا على الحافة ، لا بائتة على شطه ومعنى هذا أن القصة تتناقض مع نفسها . أما القرآن فقد قال قولا واحدا أن الله سبحانه قد ألهم أم الرضيع أن تلقي به في تابوت وتقذف بالتابوت في اليم (٢١) .

ومثل هذا التناقض نجده في اسم حمي موسى : فهو مرة رعوئيل (٢٢) ، ومرة يثرون (٢٣) ، وذلك في عدة أسطر قلائل لا

غير ، ومرة ثالثة حوباب بن راعوئيل (٢٤) ، وهذه الثالثة اطم وادهى ، لانه بهذه الطريقة قد اصبح ابن نفسه

ونفس الشئ نجده فى الاسم الذى سمى به رب العزة نفسه لموسى كى يخبر به بنى إسرائيل ، وذلك حين سأله موسى قائلاً « فاذا قالوا لى ما اسمه ، فماذا أقول لهم . فقال الله لموسى أهيه الذى أهيه وقال : هكذا تقول لبنى اسرائيل . أهيه أرسلنى إليكم » وفى الآية التالية مباشرة يكرر الله كلامه لموسى قائلا « هكذا تقول لبنى اسرائيل : يهوه اله آبائكم إله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب أرسلنى اليكم وهذا اسمى إلى الابد » (٢٥) فهل هو أهيه ام يهوه ؟ ليس ذلك مربكا ؟ ثم أهذا هو الكتاب الذى يجعله القوم اساسا يقيسون به صحة ما جاء فى القرآن او خطاه ، وبخاصة فى مسألة الأسماء ؟

وبعد إخبار الله تعالى عبده موسى انه قد اختاره نبيا يجعله كاتب سفر « الخروج » يعترض على هذا الاختيار الالهى ويكلم ربه على نحو غير لائق البتة ، اذ يقول : « اسمع ايها السيد لست أنا صاحب كلام منذ امس ولا من حين كلمت عبدك بل انا ثقيل الفم واللسان » وحين يطمئنه ربه إلى أنه سيبعث معه هارون ليكلم فرعون

بالنيابة عنه يمضى موسى فى الاعتراض الخشن قائلاً : « استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل » ويعترى كاتب القصة على الله قائلاً « فحمى غضب الرب على موسى » (٢٦) إن القصة بهذه الطريقة تصور موسى فى خطابه لربه وكأنه بدوى جلف يكلم بدويا جلفا مثله . ثم كيف يحمى غضب الله على من اختاره بنفسه نبيا لحمل رسالته ؟ وليس شىء من ذلك فى القرآن الكريم ، فصورة موسى ، مثل سائر الانبياء ، هى الصورة التى تليق برسول الله أدب مع ربه وإحساس له ومعرفة بقدره وجلاله .

وعلى خلاف القرآن الكريم ، الذى يجعل من هارون نبيا مع موسى ووزيرا وعضدا له (٢٧) ، يجعله كاتب سفر « الخروج » نبيا لموسى ، ويجعل موسى الها له (٢٨) ، وكذلك إلها لفرعون (٢٩) فما هذا الاضطراب ؟ وما هذا السخف ؟ بل ما هذا الكفر ؟

وفى سفر « الخروج » أيضا يامر الله سبحانه موسى أن يدخل هو وشيوخ بنى اسرائيل الى فرعون ويطلبوا منه ان يطلق سراح قومهم (٣٠) ولكن بعد صفحتين اثنتين فحسب ينسى مؤلف السفر ذلك ويقول بملا فمه ان الذى دخل على فرعون وطلب منه هذا هو موسى وهارون ، لا موسى وشيوخ بنى اسرائيل (٣١)

ويشبه هذا أن الله ، عند لقائه بموسى ، يأمره أن يصنع آيتي العصا واليد بنفسه ، وعند التنفيذ نجد أن هارون هو الذي يفعل هذا لا موسى (٣٢) ، وبناء على امر الله أيضا (٣٣) .

كذلك نجد نفس الاضطراب عند الكلام عن معجزة تحويل الماء إلى دم ، اذ يهدد موسى فرعون انه سيضرب بالعصا التي في يده على الماء الذي في النهر فيتحول دما ويموت السمك الذي فيه وينتن النهر ، ثم يامر الله عقيب ذلك موسى ان يجعل هارون هو الذي يصنع هذا (٣٤)

وكان الله قد طلب من موسى ان ياخذ من ماء النهر ويسكب على اليابسة فيصير الماء الذي يأخذه من النهر دماً على اليابسة (٣٥) . ولكن عند التنفيذ نجد أن هارون ايضا هو الذي يقوم بذلك ، لكن ليس على هذا النحو ، إذ ضرب هارون الماء الذي في النهر فتحول كله دما الخ وهذا ايضا تناقض

وجاء في الاصحاح السابع من هذا السفر أيضا ان هارون أكبر من موسى بثلاثة أعوام (٣٦) ، رغم ان الاصحاح الثاني يقول عن ولادة موسى : « وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي ، فحبلت المرأة وولدت ابنا ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر ولما

يمكنها أن تخبئه بعد أخذت سفطا من البردي وطلته بالحُمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعّل به » (٣٧) ، وهو ما يُفهّم منه أن موسى هو بكر أبويه ، اى أنه كان أكبر من هارون . وحتى لا يقول أحد : « لعل هارون لم يكن شقيق موسى » أبادر فأذكر أن اباهما واحد (وهو عمرام) ، وأمهما واحدة (واسمها ، كما جاء في العهد القديم ، يوكابد) (٣٨) .

وفي التسبيحة التى ترنم بها موسى وشعبه بعد غرق فرعون وجنوده في اليم نسمعهم يصفون غرق أعدائهم قائلين : « هبطوا في الأعماق كحجر » ، و « غاصوا كالرصاص في مياه غامرة » (٣٩) ، وهو ما تكرر ايضا على لسان اللاويين في سفر « نحميا » ، إذ قالوا في مناجاتهم لربهم : « ورأيت ذل آبائنا في مصر وسمعت صراخهم وفلقت اليم أمامهم وعبروا في وسط البحر على اليابسة وطرحت مطارديهم في الاعماق كحجر في مياه قوية » (٤٠) ، وذلك رغم ان فرعون وجنوده لم يقتحموا الماء حتى يقال انهم غاصوا فيه كحجر ، بل الماء هو الذى غطاهم كما جاء في العهد القديم نفسه (٤١)

أما القرآن الكريم فلا يقول الا أنه قد « غشيهم من اليم ما

عصيهم » (٤٢) ، وهو ما يتسق مع الطريقة التى عرق بها أعداء سى اسرائيل كما وصفها كل من الكتاس

ويقول سفر « الخروج » (٣٣ / ٢٠) « قال (الرب لموسى) لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الاسان لا يرانى ويعيش » (وإن قيل عقب ذلك إن من الممكن ان بنظر موسى وراء الله بعد أن يحتاز ، وكأن لله خلفا وقداما ، وظهرا ووجها بالمعنى الحرفى للظهر والوجه !) (٤٣) وسى كاتب السفر أنه قال فى موضع آخر إن الله كان يكلم موسى « وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (٤٤) وهو ما أكده سفر « العدد » ، اذ جاء فيه (١٢ : ٧ - ٨) . « وأما عبدى موسى فليس هكذا بل هو امين فى كل بيتى فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز » ، وقاله موسى نفسه حسبما جاء فى سفر « التثنية » (٥ : ٤) : « وجها لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار » ليس ذلك فحسب ، بل رأى الله مع موسى هارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ سى إسرائيل « رأوا اله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ... فراوا الله وأكلوا وشربوا » (٤٥) اما القرآن الكريم فانه يؤكد انه لا موسى ولا بنو اسرائيل قد راوا الله ، فقد

أصابته كما أصابتهم الصاعقة (٤٦) وهذا هو اللائق بجلال الألوهية وعظمتها اللانهائية

ومن شنيع الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى قوله إن هارون عليه السلام هو الذي صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى أربعين ليلة حين ذهب لميقات ربه، وإنه بنى مذبحًا لعبادة ذلك العجل، أخذ الإسرائيليون يرقصون فيه عرايا وقد بانت سوءاتهم وتعرت أستاههم. وزاد كاتب القصة فنسب إلى هارون الكذب، إذ ادعى لموسى أنه لم يفعل أكثر من أن طرح الذهب الذي جمعه من بني إسرائيل في النار فخرج العجل، مع أن القصة تقول إنه هو الذي صنعه ونحته بالإزميل نحتا (٤٧) ولكن القرآن يقرر أن الذي صنع العجل إنما هو السامري، وأن هارون قد رفض ذلك رفضا قاطعا ووقف في وجه قومه ولكنهم لم يسمعوا له وكادوا أن يقتلوه (٤٨) وهذا الذي يقوله القرآن هو ما يقبله العقل ويهش له الضمير، إذ لا يمكن أن يقدم نبي على صنع صنم وعبادته، وإلا كانت النبوة عبث في عبث. إن هارون بذلك الذي نسبه إليه مؤلف سفر « الخروج » بهتانا وكذبا يكون أول من خالف الوصايا التي تلقاها موسى على الجبل ليبلغها قومه « لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك

تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور » (٤٩) . « لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب » (٥٠) .

على ان اضطراب القصة لا يقف عند هذا الحد ، فهي تقول ان موسى عليه السلام قد أمر بني لاوي (الذين هو واحد منهم) ان يقتلوا جميع ذويهم وأصدقائهم وأهل بلدهم ممن اقترفوا خطيئة عبادة العجل ، وان محصلة القتل في ذلك اليوم كانت ثلاثة آلاف رجل (٥١) ويتساءل أبو الأعلى المودودي بحق « لم لم يقتل هارون اذا كان هو صاحب عبادة العجل ؟ لم لم يطلب بنو لاوي من موسى ان يقتل أحد هارون ، الذي كان هو الآثم الحقيقي ، بالضبط كما طلب منهم أن يقتلوا اخوتهم ؟ » . ان الكتاب المقدس ، كما لاحظ المودودي أيضا ، يذكر ان موسى بعد هذه الواقعة رجع إلى ربه داعيا إياه ان يغفر لقومه خطاياهم او يمحوه من كتابه ، فأجابه الله قائلا : « ان من أخطأ إلي أمحوه من كتابي » . ومع ذلك لم يمح اسم هارون ، بل على العكس خلع الله عليه هو وأولاده وسائر ذريته مسؤولية الكهانة والقيام على المذبح (٥٢) ويخلص المودودي من ذلك

إلى أن الكتاب المقدس يناقض نفسه بنفسه ، وأن الحقيقة هي ما قاله القرآن الكريم من أن هارون برئ، تماما من صنع العجل ومن عبادته (٥٣)

ويبدو غريبا أشد الغرابة أن يقول الله عن نفسه حسبما جاء في أكثر من موضع بالعهد القديم « أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي » (٥٤) والأغرب من ذلك أن يذكر إلى جانب هذا قوله سبحانه عن نفسه أيضا « غافر الإثم والمعصية والخطية » (٥٥) إن هذا لا يتسق مع ذات أبدا ونحن المسلمين نؤمن أنه سبحانه غفور رحيم ، وأنه إن عاقب فيعاقب المخطئ، فقط ولا يحمل وزره وازرة أخرى ولو كانت ذات قربى فهكذا قال القرآن الكريم ، وهو الذي يوافق العقل والكرم الالهي

وفي سفر « العدد » نقرأ أن هارون ومريم قد تكلما على أخيهما موسى « بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها فقالا هل كلم الرب موسى وحده ألم يكلمنا نحن أيضا » ، وأن الله قد غضب عليهما ثم نتفاجأ عقب ذلك أن مريم قد عوقبت وحدها ، وكان عقابها أصابها بالبرص (٥٦) أليس غريبا أن يخرج اثنان بنفس السيئة فيعاقب واحد فقط ؟ وأغرب من ذلك أن الله لا يعاقب هارون على

صنع العجل ، وهو كفر بواح ، ويعاقب مريم على ما لا يمكن أبدا قياسه بذاك ، اذ هو إن صح لا يعدو غيرة بين الإخوة وأين الكفر من لغيرة التي تكون بين بعض الاخوة والاخوات ؟

وينسب كتبة سفر « الخروج » الندم إلى الله سبحانه ويجعل ندمه بناء على امر موسى له : « لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى اخرجته من ارض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك فندم الرب على الشر الذى قال انه يفعله بشعبه » (٥٧) وكان الله قد غضب على بنى اسرائيل لعبادتهم العجل ومع هذا فنى سفر « العدد » يقول بلعام عنه عز وجل : « اصغ الى يا ابن صفور ليس الله إنسانا فيكذب ولا ابن انسان فيندم » (٥٨) . وهذا ، وان كان هو الذى يليق بعظمته سبحانه ، يتناقض ايما تناقض مع النص السابق .

وبعد ، فهذه فقط بعض الاخطاء والسخافات والتناقضات والإخلالات التى وقع فيها الكتاب المقدس فى القصص النبوى يريد المؤمنون به أن يحاكموا اليهما القرآن الكريم . وما من مرة وضعنا ما جاء فى القرآن الكريم بازاء ما قاله ذلك الكتاب الا وشالت كفته ورجحت كفة القرآن

ذن ، فلا معنى للاحتجاج بأن اسم هامان قد ورد في العهد القديم بصفته وزيرا لأحشويرش الفارسي ، لا وزيرا لفرعون كما جاء في القرآن الكريم . ومع هذا فسوف نغض الطرف عن كل ما مر كأنه لم يكن ، ونفترض أن هامان كان فعلا وزيرا للإمبراطور الفارسي ، فهل يمنع هذا أنه كان هناك هامان آخر قبل ذلك في مصر ؟ أم ترى هذا أمرا مستحيلا ؟ ولكن ما وجه الاستحالة في ذلك ؟ لقد ورد هذا الاسم في أوراق البردي المصرية (٥٩) . كما كانت العلاقات بين مصر وفارس قائمة على قدم وساق في الزمن القديم مثلها في العصر الحديث ، فأي غرابة في أن يوجد اسم « هامان » هنا وهناك ؟ هذا إن كان الاسم واحدا ولم يكن لكل منهما اشتقاق مختلف ، مثل « نوسي » ، الذي كانت تسمى به أم البشر في أساطير الصين القديمة ، و « نوسي » الذي تتسمى به كثير من الفتيات المصريات الآن .

ويعتقد محمد عزة دروزة أن اسم « هامان » الفارسي هو تحريف لاسم « آمون » لمن كان يتسمى به أو ينسب إليه ملوك مصر ووزراؤها ، مشيرا إلى أن مصر في ذلك الوقت كانت خاضعة لسلطة الفرس (٦٠) . ولرءوف أبو سعدة رأي قريب من هذا ، إذ يقول إن

النطق الصحيح لاسم « أمون » هو « امان » ، وإن « هامان »
(الذي يرجّح ان يكون لقبا لكبر الكهنة في مصر على عهد فرعون
موسى لا اسمًا لأحد الوزراء) هو لفظ مركب من اسم هذا الاله
مسبوق بكلمة « ها » ، التي تعني « المدخل » ، فيكون معنى
اللقب هو « الباعد الى امون » (٦١) ، أي المتصل به والوسيط بينه
وبين من يعبدونه وقد كان هامان اسمًا كذلك لأحد الآلهة العيلامية
كما مر بيانه وبالمناسبة د « أمون » هذا هو أيضا اسم ملك
أورشليم ، ابن الملك منسى ، ووالد الملك يوشيا ، الذي يقال إن حلقيا
الكاهن قد وجد نسخة من شريعة موسى في عهده (٦٢) فما قول
المنكرين في هذا ؟ اتراهم ينكرون ذلك الملك اليهودي أيضا لهذا
السبب ؟ ومن شعراء العرب المعاصرين من تسمى باسم « ادونيس »
وهو اسم أحد الآلهة السورية القديمة ؟

ومن المصريين في عصرنا من اسمه « حيرم » على اسم احد
ملوك صور القديمة وكان في حاشية الملك عبد العزيز آل سعود من
اسمه « { رشاد ا فرعون » وقد كان اسم « الناصري » لقبا للسيد
المسيح عليه السلام ، حتى حكم جمال عبد الناصر مصر فاصبح كل
واحد من اتباع حظه ليسمى يسمى د « الناصري » كما ان لقب

« المسيح » قد أطلقه اشعيا من قبل على قورش ملك الفرس ، وكذلك لقب به جرقيال ملك صور . وهناك كاتب مسرحي مصري شهير اسمه « لينين » تمجيداً ، فيما نظن ، لقائد الثورة الروسية . وأذكر ان أحد الفلاحين المصريين قد وُلد له طفل أيام العلاقات الوثيقة التي كانت بين عبد الناصر وخروشوف فسماه باسم هذا الاخير . ولا ننس ان زوجة جورباتشوف اسمها « ريسة » (تحريفا لكلمة « رئيسة » العربية فيما قرأنا) . وبين امرأة روسية من مثل ذلك الاسم العربي ؟ ومن لنا بمضى بعيداً فقد كان من النصارى في عصر الجاحظ من يتسمون بأسماء المسلمين بل بأسماء آل البيت كالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي ويكتنون بها ، حتى إن الجاحظ قد سخر من ذلك قائلاً إنه « لم يبق الا ان يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم » ؟ (٦٣) وقد اشار المقريزي ايضا الى ظاهرة اشتراكهم مع المسلمين في الأسماء والكنى (٦٤) . أما الان فانهم يكرهون ان يتسموا بذلك كراهية العمى .

ومن اكثر الاسماء التي يُطلَق كل منها على أكثر من بلد ، مثل « Cairo » (بمعنى « القاهرة » بالإنجليزية) الذي تُسمى به عدة مدن في مختلف انحاء العالم ، و « باريس » ، الذي يطلق على العاصمة

الفرنسية وعلى قرية معمورة في إحدى الواحات المصرية على ما ذكر د احمد أمين في كتابه « حياتي » . و « مراغة » ، وهو اسم بلدة بكل من صعيد مصر وبلاد فارس . و « طرابلس » ، الذي يُطّلق على « طرابلس الشام » و « طرابلس الغرب » جميعا . و « حلوان » في كل من مصر والعراق ولو رجع القارىء إلى « معجم البلدان » لياقوت الحموي مثلا فسوف يجد كثيرا من هذه الأسماء ، التي قد يطلق بعضها على ثلاثة مواضع وربما أكثر ومن ذلك « أسد » و « اسوان » و « أبهر » و « الاثلة » و « برعوث » و « برقة » و « الجماجرية » و « السند » و « العين » و « الكرش » .. الخ

الخ وقد كان اسم « بابل » يطلق ايضا على روما وامبراطوريتها قبل الامبراطور قسطنطين أيام أن كانت تدين بالوثنية (٦٥) وقد شار إليها بذلك الاسم القديس بطرس في نهاية رسالته الأولى كما تكرر ذكر يوحنا اللاهوتي لاسم « بابل » في رؤياه غير مقصود به بابل المعروفة (٦٦) ولعلها اورشليم وبابل ، حسبما يدعي مؤلف سفر « التكوين » ، هي المدينة التي اراد البشر بعد الطوفان بناءها ، لكن الرب حقد عليهم وعلى تجمعهم في مكان واحد وتكلمهم لغة واحدة فبددهم في ارجاء المعمورة وبلبل ألسنتهم (٦٧) فما القول في

هذا ؟ وفي كل من مصر والهند نجد كلية باسم « دار العلوم » كما أن في كل من بريطانيا وأمريكا جامعة باسم كمبردج .

وما القول أيضا في أن بعض المصريات يتسمين بأسماء دول ، مثل فرنسا وأندلس وسورية ، وأن « فارس » من أسماء أعلام الذكور المشهورة بين العرب ، وهو في نفس الوقت اسم « إيران » قديما ؟ وهناك نساء عربيات يطلقن الحصر اسمهن « هند » على اسم شبه القارة الهندية وكذلك توجد منتجة سينمائية مصرية اسمها « آسيا » ، وهو اسم القارة المعروفة

ويتحدى أبو الأعلى المودودي الذين يخطئون القرآن لذكره هامان مع فرعون أن يقدموا قائمة بأسماء وزراء فرعون تخلو من اسم « هامان » ، وإلا فليس يحق لهم أن يعترضوا عليه (٦٨)

وقد رأيت أن الحاخامات اليهود يجعلون وزير فرعون هذا واحدا من ثلاثة : قورح أو يثرون أو بلعام (٦٩) فأما « قورح » فقد جاء ذكره في سفر « العدد » في العهد القديم على أنه واحد من تلك المجموعة من بني إسرائيل التي تمردت على موسى وتحدته فخسف الله بهم وبدورهم وممتلكاتهم الأرض (٧٠) وهو الذي جاء ذكره في القرآن في سورة « القصص » باسم « قارون » (٧١) . فأين قورح هذا من

الوزارة لفرعون ؟ واما « يثرون » فقد رأينا أنه اسم حمى موسى ، وكان كاهنًا فى مديان وبقى « بلعام » ، وهو اسم الرجل الذى توسل إليه ملك مواب ، على ما يقول كاتب سفر «العدد » ، لكى يلعن له بنى إسرائيل حين اشرف بهم موسى على بلاده بعد الخروج من مصر بسنوات ، فلم يرض ان يلعنهم بل باركهم (٧٢) فما علاقة رجل مثل هذا بفرعون والوزارة ؟ كما رأينا ان التلمود والمدراس يجعلان بلعام و يوب ويثرون اعضاء فى مجلس شورى فرعون (٧٣) فاما بلعام ويثرون فقد عرفنا انهما لم يكن لهما علاقة بفرعون ولا بمصر حسب كلام العهد القديم نفسه واشد من ذلك إعراق فى الخطأ القول بان ايوب ، الذى ذكره العهد القديم نفسه بعد ذلك بازمان طوال ، كان عضوًا فى مجلس الشورى الفرعونى اى أن علماء اليهود وامثالهم ممن يقسمهم اولئك المعترضون الذين ذكرهم الجاحظ حجة على القرآن قد وقعوا فى مثل ما اتهم به هؤلاء القوم الكتاب المجيد بل فى اشد منه فلماذا التنطع اذن والرعونة ؟

وقد رأينا كيف ان المدراس يقرن بين هامان وقارون (٧٤) ، مما يوحى بانهما كانا متعاصرين وهذا يقترب بنا مما جاء فى القرآن أشد الاقتراب

وأخيرًا نقول لهؤلاء المعترضين إلى العهد القديم ، الذين تحاكمون القرآن إليه ، قد تنبأ ، فيما ترعمون ، بأن العذراء ستلد لله ابنًا (هو المسيح كما قيل) وتدعوه « عمانوئيل » (٧٥) فهل سُمي المسيح يوما من قبل أى إنسان بهذا الاسم ؟ إنه لم يحدث قط أن دعته أمه أو غير أمه الا بـ « يسوع » (« عيسى » فى العربية) بل ان كاتب « إنجيل متى » يكذب ما جاء فى « اشعياء » عن تسميته عليه السلام بـ « عمانوئيل » ، اذ يقول ما نصه عن مريم وحملها بعيسى : « فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع » (٧٦) بل إن جبريل عليه السلام نفسه ، حسبما جاء فى لوقا (١ / ٣١) ، يبشرها بولادة عيسى قائلاً : « وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسميه يسوع » والطريف أن متى يعود فيقول عقب ما نقلناه عنه آنفا : « هذا كله لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا » ، غير واجد أى تناقض بين ما قاله أولا وما قاله لاحقا ، مما يدل على أن الذين وضعوا هذه الكتب لم يكونوا يتمتعون بالحس النقدى ونعود فنؤكد أنه مع ذلك لم يحدث فى هذا الانجيل ولا فى أى من الأناجيل الاخرى التى يقدسها

المصرى أن بادت مريم او احد عمرن عيسى عليه السلام فى ى وقت
د « عمنوبيل » فهل مازال المعترضون يصرون على تخطئتهم للقرآن
الكريم ؟

فهذا عن اسم « هامان » اما استبعاد المعترضين ان يكون
فرعون قد فكر فى بناء صرح للاطلاع الى اله موسى كما جاء فى
القرآن (٧٧) وقولهم انه ان كان جاحدا بوجود الله فما معنى بناء
صرح مادام الله غير موجود فى اعتقاده ؟ فالرد انه لجهله كان يظن
ان بعد السماء عن الارض لا يزيد عن ارتفاع صرح من الصروح . وانه
باستطاعته البرهنة على عدم وجود الله بصعوده فى ذلك الصرح
والتحقق بنفسه من ذلك وقد سمعنا فى عصرنا هذا ، وهو عصر
التقدم العلمى الجبار ، ما قاله جاجارين اول رائد فضاء روسى عند
رجوعه من رحلته فى سفينة الفضاء من انه لم يجد الله فى السماء .
يريد ان يقول ان الالحاد ، الذى كان عقيدة بلاده فى ذلك الوقت ، هو
الدين الصحيح فلماذا نستغرب من فرعون ، فى تلك الازمنة المتقدمة
من التاريخ حيث لم يكن العلم قد قطع شيئا من هذه الخطوات الجبارة
التى انجزت فى عصرنا ، ان يفكر على هذا النحو ؟ ويرى عبد الله
يوسف على ان فرعون انما كان يقصد السخرية بموسى والدين الذى

يدعو إليه (٧٨) .

هذا إن كان فرعون جاحدا ، أما إن كان مؤمنا مشبّها فإن قول المعترضين إنه كان ولا شك يعلم أنْ ليس في طاقة بني آدم أن يبنوا بنيانا يخرق السماوات السبع والاجراء التي بينها حتى يحاذي عرش الله هو قول عجيب ، إذ من أين لفرعون أن يعرف أن ثمة سبع سماوات وأن العرش فوقها ؟ إن جاجارين في عصرنا لم يكن يعرف شيئا من ذلك ، ولا لما قال قولته التي ذكرنا قبل قليل . وليس في العهد القديم ولا الجديد ما يدل على أن السماوات سبع . إنما ذلك في القرآن الكريم ، وهو لم يكن قد نزل من السماء على عهد فرعون بطبيعة الحال . وإذا كان العهد القديم ، الذي يستند اليه اولئك المعترضون ، قد تكرر اظهاره لله على الارض تحت نظر هذا الشخص او تلك الجماعة ، فما وجه الغرابة في ان يظن فرعون ، لو كان مؤمنا قابلا للتشبيه ، أن باستطاعته رؤية الله اذا صعد الصرح واشرف على السماء ؟

ان موسى نفسه عليه السلام قد سأل ربه ، حسبما جاء في العهد القديم ، قائلا : « أرني مجدك » . فأجابه الله تعالى : « لا تقدر أن ترى وجهي ، لأن الانسان لا يراني ويعيش » (٧٩) . وقد

جاء في القرآن الكريم عن موسى قوله يناجي ربه « رب ، أرني أنظر إليك » ، فيأتيه الرد الإلهي « لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال : سبحانك ! تُبْتُ إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٨٠) ثم ألا يقول النصارى إن الله قد تجسد في هيئة بشرية ونزل من علياته وأصبح يحل في هذا المكان أو ذاك ويخلو منه سائر الأمكنة بل ويأكل ويشرب ويتغوط ويتبول وينام ويتعب ويخاف ويسب ؟ وقد طلب المشركون من النبي على سبيل التحدي أن يروا ربهم فقالوا « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » (٨١)

فهل سيكذب أولئك المعترضون بهذا كله ؟ أليس هذا في أقل القليل يشبه ما جاء في القرآن من قول فرعون إنه يريد أن يُبنى له صرح لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى ، وإن كان اتهمه عليه السلام مع ذلك بالكذب ؟

أما قول المعترضين إن فرعون إن كان كافراً فإنه لم يكن مجنوناً حتى يقول ما قال عن الصرح والاطلاع إلى الله ، فإنه يدل على عدم الفهم الصحيح للطبيعة البشرية ، وبخاصة نفسية الطغاة الجبارين ن كثيراً من هؤلاء قد ادعوا لأنفسهم الألوهية ، ومن لم يدع منهم ذلك

كان يتصرف كأنه اله لا يخطئ، ولا يصح أن يعترض عليه معترض وكثيرا ما أورد هذا الصنف من الحكام بلاده وشعوبه موارد الهلاك والدمار فدخلوا فى حروب لم يستعدوا لها فهُزِموا هزائم مروعة وأفقروا اممهم وأذلوها اذلالا لا يخطر على بال وعصرنا الحديث شاهد على عدد لا بأس به من هؤلاء الجلادين فأين كانت عقول هؤلاء حين اتوا هذه الافعال المخزية ؟ وقد قرأنا كيف أن بعض الضباط الذين يتولون تعذيب المساجين المتدينين فى بلد مسلم كانوا يقولون لهم انهم قد حبسوا الله فى الزنزانة المجاورة ! يريدون ان يُفهموهم أن أحدا لا يستطيع ان ينقذهم من يديهم وليس امامهم إلا اليأس والاستسلام المطلق فهل من الغريب بعد ذلك ان يقول فرعون ما قال وهو الذى كان يزعم انه اله ؟

الهوامش

١- [illegible] الحقائق [illegible]

2- E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam, Vol. III, p. 245

3- Encyclopaedia of Islam, New Edition, Vol. [illegible], p. [illegible]

4- Thomas Patrick Hughes, Dictionary of Islam, p. 160

٥- عن: د. عبدالجليل شلبي / رد مفتريات على الإسلام / ١٥٨

٦- د. أحمد شلبي / اليهودية / ٢٤٤

٧- عبدالجليل شلبي / رد مفتريات على الإسلام / ١٥٩

٨- السابق / ١٥٩ - ١٦٠

٩- ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران [illegible] ٢٨ وقد فسر كلمة « موردكي » التي وردت في النص هكذا [illegible] « موردخاي » [illegible] موجودة في ترجمة العهد القديم .

١٠- تكوين / ٤٦ / ٨ - ١١ ، و ٤٩ / ١ وما بعدها ، وخروج / ١ / ١ - ٦ ، و ٦ / ١٤ - ٢٠ ، و ٧ / ٧

١١- خروج / ١٢ / ٤٠ - ٤٢

١٢- باع يوسف إخوته وهو ابن ١٧ سنة لرجال من مديانيين باعوه بدوره لأحد المصريين (تكوين / ٣٧ / ٢ [illegible]) وجعله فرعون على خزائن الأرض وعمره ٣٠ سنة (تكوين / ٤١ / ٤٠ [illegible]) ويضاف إلى ذلك سبع سنوات الخصب ، وسنتان من سبع سنوات الجدب (تكوين / ٤١ / ٤٧ ، و ٤٥ / ٦ - ١١)

١٣- ابن حزم / الفصل في الملل والأهواء والنحل / ١ / ٢٥٢ - ٢٥٣

١٤- تكوين / ٤٦ / ٢٦ - ٢٧ كما ذكر في موضع آخر (خروج / ١ / ١ - ٥) أنهم سبعون

١٥- انظر ابن حزم / الفصل / ١ / ٢٤٢ .

١٦- تكوين / ٤٦ / ٣٤ ، و ٤٧ / ٦ ، وخروج ٨ / ٢٢ ويذكر ابن حزم ، بناء على الترجمة التي كان ينقل منها ، انها فوحي (الفصل / ١ / ٢٥١ ، ٢٥٢)

١٧- تكوين / ٤٧ / ١١ ، وخروج / ١٢ / ٣٧

١٨- تكوين / ٢٥ / ٢٢

١٩- خروج / ٢ / ٢ - ٤

٢٠- خروج / ٢ / ١٠

٢١- طه / ٣٨ - ٣٩ ، والقصص / ٧

٢٢- خروج / ٢ / ١٨

٢٣- خروج / ٣ / ١ وانظر كذلك نفس السفر / ٤ / ١٨ ، و ١٨ / ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢

٢٤- عدد / ١٠ / ٢٩ ، وتثنية ٤ / ١١

٢٥- خروج / ٣ / ١٣ - ١٥

٢٦- خروج / ٤ / ١٠ - ١٤

٢٧- الأعداد / ٨٤ - ٨٩ ، ومريم / ٥٣ ، وطه / ٢٩ - ٣٢ ، والقصص / ٣٤

٢٨- خروج / ٤ / ١٦

٢٩- خروج / ٧ / ١

٣٠- خروج / ٣ / ١٨

٣١- خروج / ٥ / ١ وانظر كذلك نفس السفر / ٦ ، ٢٦ - ٢٧

٣٢- خروج / ٤ / ٢٠

٣٣- خروج / ٧ / ٩

٣٤- خروج / ٧ / ١٤ - ١٩

٣٥- خروج / ٤ / ١

٣٦- خروج / ٧

٣٧- خروج / ١ - ٥

٣٨- خروج / ٦ / ٢ ، وعدد / ٢٦ / ٥٩

٣٩- خروج / ١٥ / ٥ ١

٤٠- نحميا / ٩ / ٩ - ١

٤١- خروج / ١٥ / ٥ ١٠

٤٢- طه / ٧٨

٤٣- يسخر ول ديورنت من ذلك قائلا إن إله اليهود « حيي لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره » (قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ٣ / ٢٤٠)

٤٤- خروج / ٣٣ / ١١

٤٥- خروج / ٢٤ / ٩ - ١١

٤٦- البقرة / ٥٥ ، والأعراف / ١٤٣

٤٧- خروج / ٢٢ / ١ - ٦ ، ١٧ - ٢٠ ، ٢٤

٤٨- طه / ٨٣ - ٩٧ ، والأعراف / ١٤٨ - ١٥٢

٤٩- خروج / ٢٠ / ٣ - ٥ ، وتثنية / ٥ / ٧ - ٩

٥٠- خروج / ٢٠ - ٢٢

٥١- خروج / ٣٢ / ٢٧ - ٢٩

٥٢- خروج / ٣٢ / ٣١ - ٣٢ ، وعدد / ١٨ / ١ - ٧

53- S. A. A. Maududi, The Meaning of the Qur'an, translated by

Muhammad Akbar , Vol. VII , P. 116.

٥٤- خروج / ٣٠ / ٥ ، و ٣٤ / ٧ ، وتثنية / ٥ / ١٠ .

٥٥- خروج / ٣٤ / ٧

٥٦- عدد / ١٢ / ١ - ١٠

٥٧- خروج / ٣٢ / ١١ - ١٤ . ويعلق ول ديورانت على إسناد العهد القديم « الندم » إلى الله تعالى قائلاً : « كذلك لا يرى (الله) أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما وقع منه من الأخطاء هو خلق الإنسان ، ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاول ملكاً » (قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ٢ / ٣٤٥) .

٥٨- عدد / ٢٣ / ١٨ - ١٩

٥٩- انظر د . عبدالجليل شلبي / رد مفتريات على الإسلام / ١٥٨

٦٠- انظر محمد عزة دروزة / تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم / ٢٨١ . ويلمح محمد حميد الله في ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم إلى مثل هذا الرأي ، إذ يقول إن اسم « هامان » يذكرنا بـ « آمون » (Muhammad Hamidullah : Le Saint Coran , 1973 , p. 512) .

٦١- انظر رءوف أبو سعدة / من إعجاز القرآن - العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن / ٢ / ٥٨ - ٦٠

٦٢- أخبار الأيام الثاني / الأصحاحان ٣٣ - ٣٤

٦٣- رسائل الجاحظ / ٣ / ٢١٧

٦٤- انظر د . محمد زغلول سلام / الأدب في العصر المملوكي / ١ / ١٨٦ - ١٨٧

٦٥- انظر صابر طعيمة / اليهود بين الدين والتاريخ / ٣٤٦

٦٦- رؤيا يوحنا اللاهوتي / ١٦ / ١٩ ، و ١٧ ، ٦ ، و ١٨ / ١٠ ، ٢٢

٦٧- تكوين ١١ : ١ - ٩

68 - Maududi , The Meaning of the Qur'an , Vol . X , p. 74
69 - Thomas Patrick Hughes , Dictionary of Islam , p. 60

٧٠- عدد / ١٦ / ١ - ٣٥

٧١- القصص / ٧٦ - ٧٨

٧٢- عدد / الإصحاحات ٢٢ - ٢٤

73 - E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam , Vol. II , p. 295
74 - Ibid , p. 245

٧٥- [illegible] ٧ / ١٤ ، و ٩ : ٦ - ٧ ومن غير المدهش أن نجد .

[illegible] عيسى عليه السلام كانت تقول له [illegible] يوسف النجار ، وبمثل يحتمله

[illegible] أنه [illegible] لوقا ٣ : ٢٣ - ٣٨ وكذلك متى في [illegible] عليه السلام (متى

١ / ١ - ١٧) وهذا كله اضطراب وخبط شنيع ! وعلاوة على ذلك فمتى ولوقا ، وهما

[illegible] سلسلة نسب المسيح ، مختلفان حول عدد [illegible] وعدد الأجيال التي

[illegible] وبين جده داود ، فهل هي واحد وعشرون جيلا أو [illegible] وعشرون جيلا فقط ؟

[illegible] فهل يوسف النجار الذي يقول متى ولوقا إنه [illegible] هو ابن هالي ؟ أم هل هو ابن

يعقوب ؟ وعن طريق أي من أبناء داود يتسلسل نسب المسيح إلى ذلك النبي عليهما السلام ؟

عن طريق سليمان أم عن طريق أخيه ناثان ؟ [illegible] إلخ ، وبالإضافة إلى داود ،

[illegible] رواية العهد القديم [illegible] هو حفيد للوط ثم يهوذا [illegible] على طريق زنى الأول

بابنته وزنى الثاني بزوجة ابنه ثامار ، فإذا كان المسيح حفيد داود [illegible]

والجدير بالذكر أنه في [illegible] الذي يحمل [illegible] المسيح عليه السلام ، في سلسلة

[illegible] التي ذكرها [illegible] ليوسف النجار ولا [illegible] إلى أنه على أي نحو [illegible]

يجعل هذه النبوة الإلهية لآدم عليه السلام

٧٦- متى / ٩ / ٢٩

٧٧- القصص / ٣٨ ، وغافر / ٣٧ .

78 - A. Yusuf Ali , The Holy Quran , pp. 1013 , 1273 .

٧٩- خروج / ٣٣ / ١٨ - ٢٠

٨٠- الأعراف / ١٤٣ كما ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل قالوا لنبيهم « أرنا الله جهرة » فأخذتهم الصاعقة (البقرة / ٥٥ ، والنساء / ١٥٣)

٨١- الفرقان / ٢١

٥- يحيى

كما شنّع النصارى على ما أخبر به القرآن الكريم من أن الله سبحانه قال لزكريا عند تبشيره بولادة يحيى : « يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبلُ سميا » (١) ، مؤكدين أنه كان هناك قبله أكثر من واحد اسمه « يحيى » ، مثل يوحنا بن قارح (٢) . وقد جاء في ترجمة لوديفيج أولمان الألمانية للقرآن ، تعليقا على هذه الآية ، أنه كان قبل يحيى أشخاص عدة يحملون اسم « يوحنا » (٣) .

وهذا التشنيع يقوم على أن كلمة « سمي » تعني بالضرورة « من كان له نفس الاسم » ، إذ هم قد فهموا من الآية أن أحدا قبل الغلام الذي وهبه الله لزكريا لم يُسمَّ باسم « يحيى » . والحق أن هذا ليس إلا أحد معاني الكلمة على ما ورد في معاجم اللغة وكتب التفسير ، والمعاني الأخرى هي : « المفاخر » و « النظير » و « السامي » ، ويمكن لمن يريد التحقق مما نقول أن يرجع إلى القواميس اللغوية ، وأمامه عدة منها وضعها مؤلفون نصارى يستطيع أن ينظر فيها مثل « محيط المحيط » للبستاني ، و « المنجد »

للسوعيين ، و « الرائد » لجبران مسعود

وقد فسر المفسرون « سميا » في الآية الكريمة بما يفيد أن يحيى عليه السلام لا يساميه أو يشبهه أحد ، أو أن احدا قبله لم يسمّ باسمه فمن الممكن جدا إذن أن يكون المعنى هو أنه لم يجيء قبل يحيى أي نظير له وقد جاء في « متى » على لسان عيسى عليه السلام : « الحق أقول لكم لم يقُمْ بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (٤) وهو تقريبا نفس ماكتبه لوقا في إنجيله على لسان عيسى ايضا « لانى أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان » (٥) فان ارادوا ان ينكروا على القرآن قوله عن يحيى عليه السلام : « لم نجعل له من قبل سميا » فلينكروا ذلك ايضا على اناجيلهم . وأنى لهم ذلك ؟ على ان القرآن يخلو من تناقض انجيل متى ، الذى بعد أن قال إنه لم يجيء قبل يحيى عليه السلام من هو افضل منه عاد فاضاف العبارة الآتية : « ولكن الاصغر في ملكوت السماوات افضل منه » ، وهو ما دفع ابن حزم الى التعليق قائلا « تاملوا هذا الفصل ترو مضحكة الدهر فيهم وقرة عيون الاعداء ، وقولا لا يمكن ان نقوله ولا ننطق به صبي ترجى فلاحه ولا أمه وكفاء ، الا ان يكون مدخول العقل اثبت انه لم

مولد في الأدميين اشرف من يحيى ، واذ كان كما زعم ان الصغير في ملكوت السماء اكبر من يحيى ، فكل مؤمن يدخل ملكوت السماء ضرورة فهو افضل من يحيى ، فوجب من هذا ان كل مؤمن من بني ادم فهو افضل من يحيى ، وان يحيى ارذل واصغر من كل مؤمن . فما هذا الهوس ؟ وما هذا الكذب ؟ وما هذه لعثرة السمجة في لدين ؟ وكم هذا التناقص ؟ والله ما قال المسيح قط شيئ من هذه الرعونة ، وما قالها الا الكذاب مثى وطراوه ، عليهم للعنة ! فلقد كانوا في غاية الوقاحة والاستخفاف بالناس » (٦)

ومع هذا فقد ورد في الانجيل المنسوب الى لوقا : « واما اليصابات (زوجة زكريا) فتم زمانها لتلد فولدت ابنا وسمع جيرانها و قرباؤها ان الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها . وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم ابيه زكريا . فاجابت امه وقالت لا بل يُسمى يوحنا . فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم . ثم اومأوا الى أبيه ماذا يريد أن يُسمى . فطلب لوحا وكتب قائلا اسمه يوحنا . فتعجب الجميع » (٧)

ويمكن ايضا ان تفسر الآية القرآنية بهذا المعنى . ولكن قد يقال إن القرآن قد اطلق القول حين أخبر ان احدا قبل يحيى لم يسم

باسمه ، على حين ان لوقا قد حصر ذلك في عشيرة اليصابات ، الا أن من العاجز جدا أن يكون ذلك هو قصد القرآن منه . فقد جرت هذه البشرى اثر ابتهال زكريا لربه قائلا : « رب ، انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالي من ورائي ، وكانت امرأتي عاقرا ، فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا » (٨) وواضح أن الكلام يدور حول عشيرة زكريا ، وهي نفسها عشيرة زوجته ، فمن الممكن ان يكون المعنى : « لم نجعل له من قبل (بين عشيرتك) سميا » وهذا ان صح أن احدا قبل يحيى خارج عشيرته قد سمي باسمه (٩) لقد اثار المعترضون الذين اورد الجاحظ كلامهم إلى انه كان يوجد قبله عليه السلام من اسمه يحيى ، ثم مثلوا بـ « يوحنا بن قارح » .

ولنا على ذلك عدة ملاحظات : أولا ان القرآن قال انه لم يكن هناك قبله عليه السلام من اسمه « يحيى » ، اما اولئك المعترضون فقد ذكروا « يوحنا (بن قارح) » فهل قصد القرآن « يوحنا » أو « يحيى » ؟ اذا وقفنا عند ظاهر النص على الأقل فالقرآن قد قال « يحيى » ولم يقل « يوحنا » و « يحيى » مشتق من الحياة او

العيب . أما « يوحنا » فيقولون انه يعني في العبرية « كان يهوه كريما » (١) ، وهذا غير ذلك . ثانيا : الشخص لدى ذكره المعترضون لم يكن اسمه « يوحنا (بن قارح) » بل « يوحانان » (١١) قد يقال ان « يوحنا » هو اختصار لـ « يوحانان » (١٢) لكننا ، إن تغاضينا عن الفرق بين « يحيى » و « يوحنا » وقلنا ان القرآن قد قصد « يوحنا » ، نستطيع ان نرد بان المقصود هو ان احدا قبله عليه السلام لم يتسم بهذه الصيغة الاختصارية لا بالصيغة الكاملة . وذلك كما نقول ان أحدا قبل هذا الطفل لم يتسم بـ « نبيل » ، فلا يجوز ان يعترض معترض بان كثيرين من قبله قد تسموا بـ « نبيل » ، لانه وان كانت « نبيل » هي صيغة التدليل لـ « نبيل » فانها مع ذلك ليست اياه . ولكن قد يقال ان اسم « يوحنا » (بهذه الصيغة الاختصارية) قد ورد في سلسلة نسب المسيح حسبما اوردها لوقا (٣ : ٢٣ - ٣٨) ، لا أننا ينبغي أن نكون على ذكر من أن المسيح ، في هذه السلسلة وكذلك في السلسلة التي اوردها متى (١ : ١ - ١٧) ، هو ابن يوسف النجار (١٣) وهذا كذب صراح ، ولا يقبله لا النصارى ولا المسلمون ولا اليهود . فاما المسلمون فلانهم يؤمنون انه عليه السلام قد ولد دون

أب ، وأما النصارى (أقصد جمهورهم ، وهم المثلثون) فهم يزعمون انه ابن الله ، بينما يقول اليهود إن مريم قد حملت به سفاحا من احد جنود الرومان على ما هو معروف (١٤) كذلك فإن يوحنا هذا لم يرد له ذكر في السلسلة التي ساقها متى وفضلا عن ذلك فإن في أحد الأناجيل التي ترفضها الكنيسة أن مريم لم تكن مخطوبة ليوسف النجار ولا لغيره ، وانما كانت معتكفة في المعبد لعبادة الله (١٥) ، مما يتفق مع ما جاء في القرآن من ان امها حين حملت بها قالت « رب ، اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني ، انك انت السميع العليم » ، وان مريم بعد ان شبت كانت تلازم المحراب حيث كان زكريا كلما دخل عليها وجد لديها رزقا من عند الله (١٦) ، ومن ثم فلا معنى للربط بين المسيح عليه السلام ويوسف النجار على اى وجه من الوجوه أى أن السلسلة المذكورة في « متى » و « لوقا » لا تبعث ابدا على الاطمئنان ، فكيف نثق إذن بانه كان من آباء يوسف النجار من اسمه يوحنا ، وبخاصة ان يوحنا هذا (كما أوضحنا قبيل قليل) لا وجود له في سلسلة متى ؟

ثالثا : أنه حتى لو ثبت فعلا أنه قبل يحيى عليه السلام كان هناك من اسمه يوحنا ، فيمكن القول إن المراد أن أحدا من الانبياء

السابقين عليه لم يتسمّ باسمه (١٧) ، على أساس أن يحيى لم يكن شخصا عاديا ، بل كان نبيا .

ورابعا : من الممكن جدا أن يكون المقصود أن أحدا قبله عليه السلام ممن كان اسمه « يوحنا » (أو حتى « يوحانان ») لم يتحور اسمه إلى « يحيى » ، إنما كان يحيى عليه السلام هو أول من حدث لاسمه ذلك .

وهذا كله على أساس أن « يوحنا » الذي سُمّي به ذلك النبي الكريم هو « يوحنا » الذي يتسمّى به غيره . بيد أن أحد الباحثين العارفين بالعبرية والمطلعين على ترجمات الكتاب المقدس بهذه اللغة وغيرها يقرر أن يحيى عليه السلام لم يكن اسمه « يوحنا » (بالألف) بل « يوحنى » (بالامالة) ، وأن هذا الأخير مكون من كلمتين : « يو » (أي الله) و « حنى » (بمعنى « أحْصر ») ، ومعناه : « الله أحْصر » ، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم حين وصف النبي يحيى بأنه كان « حصُورا » ، والمقصود بذلك أنه كان يكف نفسه عن شهوة النساء مع وجود القدرة وهو من ثم يرى أن « يحيى » مشتق من الحياء (أي أنه كان يستحي من التطلع إلى النساء) كما يؤكد أن كتبة الأناجيل عندما

اشتو « يوحنا » بالألف انهم كانوا يجتهدون ، ولكنهم اخطأوا في اجتهادهم (١٨)

ومن هذا كله نرى انه لا معنى لاعتراض المصرى على الآية وتكون لآية قد صيغت بهذه الطريقة الفذة لتعنى الامرين جميعا : ان يحيى لم يكن له من قبل نظير ، وانه لم يتسم احد باسمه (اما بالطلاق ، واما من عشيرته ، واما من امثاله من الأنبياء ، واما أن احدا من التابعين عليه ممن كان اسمهم « يوحنا » لم يتحور اسمه في العربية إلى « يحيى ») .

وينبغي الا يفوتنا ان هذه الاية قد قُرئت ، ضمن صدر سورة « مريم » ، على النجاشي وبطارقته عندما سأل ملك الحبشة ، رحمه الله ، الصحابة الذين فروا إلى بلاده من اضطهاد قريش عما يقوله القرآن في حق عيسى عليه السلام ، ولم تكن الآية محل دهشة او استغراب من ايهم (١٩) ، ودعك من ملايين النصارى الذين سلموا بعد ذلك ولا يزالون .

الهوامش

١- مريم / ٧

٢- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٥ . والملاحظ أنه لا يوجد للجاحظ رد على هذا الاعتراض في الرسالة التي بين أيدينا

3- Ludwig Ullman : Der Koran - Das heilige Buch des Islam , S. 245 , n. 4

٤- متى ١١ / ١١

٥- لوقا ٧ / ٢٨

٦- ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل / ٢ / ٦٩

٧- لوقا ١ / ٥٧ - ٦٣

٨- مريم ٤ - ٦

٩- يرى صلاح الصاوي أن الإشارة في إنجيل لوقا إلى أن أحدا في عشيرة أليصابات لم يسم من قبل باسم « يحيى » إنما هي منقولة من القرآن الكريم ، وحجته بها أنها لم ترد في الأناجيل الأخرى (انظر كتابه « جوهر الإيمان في صحيح الأديان - تحليل الكتاب » ٢ / ٣٩ ، ٤٠) . لكنه لم يبين لنا كيف حدث هذا النقل ولا متى تم . ثم إن هذه ليست التفصيلة الوحيدة التي ينفرد بإيرادها أحد الأناجيل دون غيره . كذلك فقد تكون هذه الإشارة موجودة في واحد أو أكثر من الأناجيل التي حاربتها الكنيسة ودمرتها أو حرقتها

10- Basil Cottle : The Penguin Dictionary of Surnames , art. John , and Abdullah Yusuf Ali : The Holy Quran , 768 , n. 2461

١١- ورد ذكر هذا الرجل في الأخبار الأول ١٢ / ١٢ والملوك الثاني / ٢٥ : ٢٣ وإرميا ٤٠ / ٨ ، و ٤١ / ١١ ، و ٤٣ / ٦ وأسماه ، كما ورد عند

الحافظ ، هو يوحنا بن مريم وواضح أنها تصحيف

12 The Oxford English Dictionary art John

١٣ في تعليق محققي كتاب « الفصل » على قول ابن حزم « متى الكذاب ينسب المسيح إلى يوسف النجار » (٢ / ٣٣ ، مراهما بقولان « راجع انجيل متى / الاصحاح الاول وفيه » اما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت مريم امه مخطوبة ليوسف قبل ان يجتمعا وجدت حبلى من روح القدس فيوسف رجلها اذ كان بارا ولم يشا ان يشهرها اراد تخليتها سرا ولكن فيما هو متفكر في هذه الامور إذ ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلا يا يوسف ابن داود ، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لان الذي حبل به فيها هو من الروح القدس الخ » (المقرب من ١٨ - ٢٤) وهذا يخالف ما قرره ابن حزم (يقصدان قوله إن متى قد نسب المسيح عليه السلام إلى يوسف النجار) فلعل الاناجيل قد تعرض لتغيير وتبديل آخر . (الفصل / ٢ / ٣٣ / هـ ١٠٩) والحقيقة انه لا خلاف بين ما قاله ابن حزم وبين ما جاء في متى ، الذي ورد في اول إنجيله سلسلة نسب المسيح ، وفيها انه عليه السلام ابن يوسف (انظر سلسلة النسب المذكورة في اول « متى ») وقد اوردها ابن حزم وعلق عليها في كتابه (٢ / ٢٧ - ٢٩ ، ٣٣) اما قول متى عقب ذلك ان مريم قد حملت بعيسى من الروح القدس فهو تكذيب لسلسلة النسب المشار إليها ، أي ان متى يناقض نفسه ويكذب نفسه بنفسه في اسطر معدودات ولكن هذه مسألة اخرى وبالمناسبة فقد جاء اسم الروح القدس في المرة الاولى في النص المنقول عن متى هكذا « روح القدس » وهو سهو ، اذ إنه هناك « الروح القدس » لا « روح القدس » بدون « ال » فهو اسمه عند المسلمين

١٤ انظر ول ديورنت قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران ١١ / ٢٨٤

وابن كثير / البداية والنهاية / ٢ / ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢

١٥- الإنجيل المشار إليه هو إنجيل متّى غير المعتمد عند النصارى ، وهو غير إنجيل متى المقبول عندهم والموجود في العهد الجديد . انظر د . علي عبدالرحمن وافي / الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام / ١٤ - ٩٥

١٦- آل عمران / ٣٥ - ٣٦

١٧- وقد أشار إلى هذا المرحوم عبد الله يوسف علي ايضا في ترجمته للقرآن إلى الإنجليزية (ص ٧٦٨ / هـ ٢٤٦١)

١٨- انظر رءوف ابو سعدة / من إعجاز القرآن - العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن / ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٨

١٩- انظر سيرة ابن هشام / ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧

٦- نبوة النساء

وذكر الجاحظ أيضا أن مما اعترضت به النصارى على القرآن قوله إن الله يخاطب النبي قائلا : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١) ، مما يفيد أن الأنبياء لا يكونون نساء ، على حين أن أهل الذكر (أي أهل الكتاب) ، الذين أمر الله العرب أن يسألوهم في هذه المسألة ، يقولون إن الله قد بعث من النساء نبيات ، مثل مريم ابنة عمران وحنة وسارة ورفقة (٢)

والواقع أن معنى الكلام في الآية هو أنه لم يحدث أن أرسل الله للناس رسولا إلا وكان بشرا مثلهم ، فلم يحدث أن أرسل ملكا ذلك أن الكفار كانوا يتعنتون ويتظاهرون بالدهشة من أن الله قد بعث إليهم محمدا وهو بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق (٣) ، وكانوا يقولون « هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ » (٤) ، كما طلبوا منه مرارا أن ينزل عليه أو معه ملك (٥) وقد كانت تلك هي تعلات كفار الأمم السابقة التي يتعللون بها ضد الأنبياء المرسلين إليهم ، كما هو واضح من الآيات القرآنية المتعددة (٦) . ولكن اعترض كفار قريش [illegible] انه سبحانه لم يرسل [illegible] مرسلين [illegible] ، و [illegible]

اعتراضهم على بشرية الرسول ، فكان رد القرآن في الآية التي استشهد بها المعترضون من النصارى هو أن الرسل الذين أرسلوا قبلك يا رسول الله كانوا مثلك رجالا ، أي يجري عليهم ما يجري على البشر ، فهم يأكلون ويموتون (٧)

ومع ذلك فقد يجيب هؤلاء المعترضون من النصارى وأمثالهم بأن القرآن كان يستطيع أن يقول مثلا « وما أرسلنا قبلك إلا بشرًا نوحي إليهم » بدلا من كلمة « رجال » ، التي تدل على أن الرسل كانوا دائما بشرا ذكورا لا بشرا فقط . لكن فات هؤلاء أن « الرجال » ليسوا بالضرورة هم الذكور من الناس فقط بل يشملون النساء ، أيضا ؛ ذلك أن المرأة تسمى « رجلة » (مؤنث « رجل ») أي أنه مثلما نقول « امرؤ » و « امرأة » نقول « رجل » و « رجلة » (٨) . فكلمة « الرجال » إذن هي معناها « البشر » وهذا على أساس أن الله قد أرسل فعلا رسلا من النساء ، وهو ما سوف نناقشه بعد قليل

ليس في وصف القرآن للرسل إذن بأنهم « رجال » ما يوحي بشبهة ما . السائغة في أن يوصف الله سبحانه في العهد القديم بأنه « إنسان » (٩) وأن يقال عن جبريل عليه السلام « الرجل

جبريل » (١٠)

ثم إن « أهل الذكر » المذكورين فى القرآن هم أهل التوراة والإنجيل اللذين نزلا من السماء على موسى وعيسى ، لا لكتب المسماة بالعهد القديم والعهد الجديد ، وهى الكتب التى أُلّفت تأليفا وتجمّع بين ما نزل من السماء مما حُفظ عن موسى وعيسى عليهما السلام وبين ما أوحت به لمؤلفيها الشياطين وأهل الذكر هؤلاء هم الذين دخل منهم الكثيرون فى الإسلام ولا يزالون يدخلون وقد بين القرآن فى عدة مواضع منه أن أهل الكتاب قد زوروا كتبهم وكتبو أشياء من عند أنفسهم وقالوا انها من عند الله ، فكان ينبغى على أولئك المعترضين أن يعوا هذا وأن يعرفوا أنه سبحانه وتعالى لا يمكن أبدًا أن يقصد بـ « أهل الذكر » هؤلاء الذين يؤمنون بتلك الكتب المزورة .

ومع ذلك فلننظر فى هذه الكتب لنرى ماذا تقول · فأما بالنسبة لسارة ، وهى أقدم النساء التى أشار إليها المعترضون ، فإن سفر « التكوين » ، وهو السفر الذى توجد فيه قصتها هى وإبراهيم وذريتهما ، لا يذكر أبدا أنها نبية أو رسولة ، ولا يشير إلى ذلك أدنى إشارة لا من قريب أو بعيد وكذلك الحال بالنسبة لرفقة زوجة

ابيها إسحاق

ومن يقرأ قصة إبراهيم واسحاق وزوجتيهما حسبما جاءت في سفر « التكوين » يستغرب أشد الاستغراب من جراة أولئك الذين يريدون أن يجعلوه هو وامثاله من أسفار الكتاب المقدس محك للقرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذه بعض الملاحظات السريعة على تلك القصة ، وهي كفيلة بان يفقد القارىء الثقة بالسفر كله وبالكتاب المقدس اجمع :

من هذه الملاحظات أن الله قد ظهر لإبراهيم وابنه اسحاق عليهما السلام عدة مرات وعاشا بعدها لم يحدث لهما شىء (١١) ، مع ان العهد القديم ، كما رأينا فيما سبق ، يقول إنه ما من احد يرى الله ثم يعيش بعدها وذلك كله فضلا عن ان الله سبحانه لا تمكن رؤيته فى الدنيا .

ويجترىء مؤلف السفر على الذات العلية فيقول ان الله سبحانه حينما سمع شدة صراخ سدوم وعمورة بسبب كثرة خطاياهم قال « ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جدا أنزل وارى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي الى والا فاعلم » (١٢) . وكان الله عز وجل لا يستطيع ان يتاكد من وقوع اى امر الا بعد ان يهبط

بنفسه ويشاهد بعينه ! فما الذى يبقى من الألوهية بعد هذا ؟ وما الفرق بينه وبيننا نحن البشر ؟

ويفغر الإنسان فاه دهشة مما ينسبه كاتب السفر إلى إبراهيم عليه السلام ، وهو النبى الكريم ، إذ يقول عنه إنه لما ذهب إلى مصر أوصى امرأته أن تنكر أنها زوجته ، حتى إذا حلتّ فى عين فرعون أخذها دون أن يفكر فى قتله (١٣) وهى فعلة لا يأتيها إلا ديوث ، وحاشا لأنبياء الله المصطفَيْن أن يفكروا فيها بله أن يقدموا عليها ولم يحدث هذا مرة بل مرتين ، وكانت المرة الثانية مع أبيمالك ملك جرار (١٤) . ليس هذا فحسب ، فإن ابنه إسحاق عليه السلام ، على حسب ما جاء فى هذا السفر أيضا ، قد كرّر ما صنعه أبوه من قبل ومع أبيمالك نفسه أيضًا (١٥) فكأن الدِّياثة مما ورثه عن أبيه على حسب ما كتب القوم . أستغفر الله !

ويقول كاتب السفر إن الله قد أمر إبراهيم قائلا : « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المُرّيا وأصعده هناك مُحْرَقة على أحد الجبال الذى أقول لك » (١٦) ، رغم أن إبراهيم كان له آنذاك ولدان : إسماعيل وإسحاق ، بل إنه رُزق بإسماعيل قبل إسحاق بسنوات ، أى أن إسحاق لم يكن وحيد أبيه يوما من الأيام فهذه

كذبة شنعاء ، ويزيدها شناعة أن تُنسب إلى الله سبحانه .

والعجيب أن إبراهيم ، حينما يأمره الله بذلك ، لا يجد في الامر ما يدعو إلى الاستغراب ، برغم ان الله كان قد بشَّره بأنه سيكون له من اسحاق هذا نسل (١٧) ، ولم يكن إسحاق حين أمر إبراهيم بذبحه إلا صبيا صغيرا لم يتزوج بعد . وكان ينبغي أن يسأل إبراهيم نفسه : كيف يأمرني الله بذبح ابني قبل أن يتزوج وتكون لي منه ذرية حسبما بشَّرني ؟

ويتناقض كاتب السفر في تفسيره لتسمية « بئر سبع » بهذا الاسم : فمرة يقول إن إبراهيم كان قد أعطى ابيمالك سبع نعاج لكي تكون له شهادة بأنه حفر تلك البئر (١٨) ، ثم يعود بعد عدة صفحات فيقدم تفسيرا آخر مخالفا لهذا كل المخالفة ، اذ قال ان عبيد إسحاق (بعد ان كان إبراهيم عليه السلام قد انتقل الى جوار ربه بزمن طويل) جاءوا وأخبروه عن بئر حفروها ووجدوا فيها ماء ، فسمى هذه البئر « شبْعة » ، ولذلك سميت المدينة باسم « بئر سبع » (١٩) ، أي على اسم البئر المذكورة .

وفي هذا السفر أيضا أن يعقوب (بن اسحاق ورفقة) يشترط على الله لكي يؤمن به ان ينجيه من مخاطر الطريق ويعيده الى بيته

سالما ويرزقه المطعم والملبس (٢٠) . فانظر إلى هذا الايمان المشروط !
ويزيد الأمر عجبا ان يُنسب ذلك إلى نبيّ ابن نبي !

ومنه أيضا ان الله قد تجلى له في الطريق فاشتبكا معا في
صراع طويل ومرير حتى طلوع الفجر وان يعقوب قد أمسك به سبحانه
إمساكة لم يستطع أن يتخلص منها إلا بعد أن جمع كل قوته وضربه
على حُق فخذه بعزم البائس الذي لم يكن يصدق بالنجاة من
غريمه (٢١)

ثم كيف تكون نبية من تحقد على ابن ضرتها كل ذلك الحقد
الذي دفع سارة الى ان تطلب من إبراهيم ان يطرد هاجر وابنها
إسماعيل ويحرمه من الميراث ويجعله كله لابنها إسحاق ظلما وعدوان ؟
وقد كان لها ما أرادت (٢٢) .

أم كيف تكون نبيةً من ترسم ، كما رسمت رفقة ، لاحد ابنيها
خطة كذب وغدر وحيلة ليسرق لنفسه البركة التي كان ابوه سيعطيها
لاخيه الاكبر فتتسبب في حقد متاجج بين فلذتي كبدها لا يخبو مع
الأيام ؟ (٢٣) . هذه ليست أخلاق الانبياء حتى لو كن من الجنس
اللطيف ! ثم انه لم يكن هناك اي سبب من شأنه ان يدفع تلك
« النبية » لزعمهم ان تصنع ما صنعت من الاثم كما لا يعد

يكون نبوة سخيفة حمقاء، لا يمكن أن تقع فيها أيّ أم عندها مسكة من عقل فضلاً عن سيّة !

فهذا عن النبوة المزعومة لسارة ورفقة . ونأتي إلى مريم بنت عمران . ولست أظن ان المقصود أم المسيح عليه السلام . فالنصارى لا يسمونها مريم بنت عمران ، بل يعترضون على القرآن لذلك ، قائلين إنه يخلط بينها وبين مريم أخت موسى وهارون ، وان اسم أبيها هو يواقيم ، فضلا عن انهم ، فيما نعرف ، لا يقولون بنبوة مريم أم عيسى . ان المقصود مريم أخت موسى وهارون عليهما السلام ، فأبوهم هو عمرام (« عمران » في اللغة العربية) على ما مرّ بيانه . وقد وردت اشارة إلى نبوة مريم هذه في سفر « الخروج » من العهد القديم ، اذ جاء فيه النص التالي في سياق حكايته لغرق فرعون وجنوده في اليم ونجاة بني اسرائيل : « فأخذت مريم النبية أخت هارون الدفّ بيدها . وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص وأجابتهم مريم : رنموا للرب فانه قد تعظم . الفرسَ وراكبه طرحهما في البحر » (٢٤) . وهذه ، فيما أعرف ، هي الإشارة الوحيدة إلى نبوتها في العهد القديم .

وانه لعجيب جد عجيب الا يذكر لتلك النبية المدعاة عمل

إلا الدق على الدفّ لضبط الإيقاع للراقصات ! ترى أهذه نبية أم « عالمة » رقّاقة ؟ وأين يا تُرى نحن ؟ أفى ملهى ليلى أم فى حضرة أنبياء ؟ إن مكان هذه المرأة المناسب هو ثلاثية نجيب محفوظ لا كتاب يقول أتباعه إنه مقدس وموحًى به من السماء !

ثم نلتقىّ مع مريم هذه ثانيةً فى سفر « العدد » . وليس الموقف الذى سنقابلها فيه أفضل كثيرا من سابقه . وإذا كانت فى الموقف الماضى تمسك بالدف لتوقع عليه لمجموعة الراقصات فإنها هنا تغتاب أخاها موسى وتحقد عليه : « وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها . لأنه قد اتخذ امرأة كوشية . فقالا هل كلّم الرب موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضا فسمع الرب . وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » . وقد غضب الله عليهم لذلك ، وإن كان قد عاقبها وحدها (ولا ندرى السبب فى هذا) وضربها بالبرص ! (٢٥) ونتساءل مرة أخرى : أيمكن أن تكون مثل هذه المرأة نبية ؟ لقد هُزلت النبوة هزالا قبيحا إذن حتى سامها كل مفلس ! وأحب أن يعرف القارئ أنه لم يحدث أن كلم الله هارون . ومعنى ذلك فهارون ليس نبيا من أنبياء الله فى العهد القديم . إنما هو نبى

لموسى (٢٦) . وموسى هو الذى كان يصدر اليه الأوامر بوصفه الها له . وقد مرت الإشارة إلى ذلك . كما لم يُذكر فى أى موضع من العهد القديم أن الله قد كلم مريم ، على عكس ما يقول كاتب سفر « العدد » فى النص الذى مر آنفا . ولم يرد البتة فى العهد القديم أن مريم هذه قد بلغت عن ربها لأحدٍ شيئا . ثم ان الله سبحانه لا يعاقب أنبياءه ، بله يضربهم بالبرص .

وتبقى حنة . وهى حنة بنت فنوئيل ، التى يقول عنها لوقا فى انجيله : « وكانت نبية حنة بنت فنوئيل من سبط أشير . وهى متقدمة فى أيام كثيرة . قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها وهى أرملة نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلا ونهارا » (٢٧) . وكما ترى فليس فى النص (ولا فى أى مكان آخر من لوقا أو غيره من الأناجيل) كيف أصبحت هذه المرأة نبية . إنما هو مجرد ادعاء ليس غير . بل ان النص نفسه ليكذب هذا الادعاء ، اذ فيه أنها لم تكن تفارق الهيكل وأن كل ما كانت تفعله هو الصوم والصلاة ، فأين ومتى وكيف كانت تمارس مهام النبوة المزعومة ؟ ان القرآن يقول : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم » ، مما يفيد ان المسألة ليست مجرد الهام أو وحى ...

هي رسالة يرسل الله بها رجالاً إلى أقوامهم ، فليدلنا من يكذّبون القرآن على امرأة (امرأة واحدة) قد أرسلها الله إلى قومها

وإذا كانت الكهانة في الشريعة اليهودية ، كما هو معروف ، مقصورة على الذكور وحدهم من بني لاوى ، فكيف يمكن أن يكون باب النبوة مفتوحا على مصراعيه للرجال وللنساء على السواء ، رغم أن النبوّة أهم وأخطر من الكهانة بمراحل ؟ بل انه حينما اختار موسى سبعين من كبار قومه ليذهبوا معه إلى خيمة الاجتماع حيث يقفون هناك وينْزل الله ويتكلم معهم ويأخذ من الروح الذى على موسى ويضع عليهم حتى يحملوا معه ثقل الشعب ولا ينفرد هو وحده بهذا العبء كان أولئك السبعون كلهم رجالا بحسب الأمر الالهي كما جاء في سفر « العدد » . وقد حدث حين نزل الله سبحانه في سحابة وتكلم معهم وأخذ من الروح الذى على موسى ووضع عليهم أن « تنبأوا » جميعًا ، حسبما جاء في السفر المذكور (٢٨)

وفي الحقيقة فإنه يصعب علينا تمامًا أن نتصور امرأة مرسلة لهداية الناس وقيادتهم إن المرأة بطبيعتها ضعيفة البنية ، وتتعرض للحيض والحمل والولادة والنفاس ، وتخضع لزوجها وبخاصة في بلاد الشرق حيث ظهرت اولئك النبيات في زعم المغرضين ، فكيف يمكنها

، تقوم بوظيفة الرسالة بجلالها وقدسيتها وتبعاتها الثقال التى لا يقدر عليها الا الأفذاذ أولو العزم من الرجال ؟ أليس مضحكا أن نتخيل نبية حائضا أو حاملا قد برز بطنها للأمام فهى تتأوه وتضع يديها على خصرتيها وتتقايأ ، أو وهى تضع وليدها وصراخها يبلغ عنان السماء ؟

وماذا تفعل إذ أمرت ان تبلّغ للناس وحيا مما ينزل عليها فاعترض زوجها ونهاها عن الخروج من البيت مهددا إياها بالطلاق ؟ إننى هنا لا اتهكم ، فإن الشريعة اليهودية مثلا تشترط موافقة الأب على نذر ابنته ، والزوج على نذر زوجته ، والا فلا نذر عليهما (٢٩) .

وإن من يعرف أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالمرأة عند ولادتها وحيضها ليستغرب اشد الاستغراب مما جاء فى الكتاب المقدس عن وجود نساء نبيات . إن الطمث عند اليهود يمتد سبعة أيام ، وكل من يمس المرأة فى هذه الأثناء يظل نجسا إلى المساء ، وكذلك كل ما تضطجع أو تجلس عليه . بل إنه إذا مس أحد فراشها فإنه يكون أيضا نجسا حتى المساء ، وعليه ان يغسل ثيابه ويستحم . ويسرى هذا الحكم ايضا حتى لو لم يكن الدم الذى يسيل من المرأة دم حيض . وعندما تطهر المرأة من دمها فإنها تبقى سبعة ايام أخرى قبل أن تطهر ، وفى اليوم الثامن تأخذ ذبيحة خطئة وذبيحة مُحَرّقة وتذهب

بهما إلى باب خيمة الاجتماع حيث تبقى هناك ولا تدخل ، فتسلمهما للكاهن ليكفر بهما عنها من سيل نجاستها. كذلك فإن الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة ينجسهما إلى المساء. أما الولادة فبها تنجس المرأة أسبوعا إن كان المولود ذكرا ولا تمس حينئذ شيئا مقدسا ثلاثة وثلاثين يومًا ، وأما إن كان المولود أنثى فتتنجس الأم لمدة أسبوعين ولا تمس شيئا مقدسًا ستة وستين يوما (٣٠)

إن النبوة في الكتاب المقدس تبدو في كثير من الأحيان وقد خلت من مضمونها الذي نعرفه : فنوح مثلاً يسكر حتى يفقد وعيه وينطرح على الأرض وتتعرى سوأته أمام كل من هب ودب. وإبراهيم يتنازل عن امرأته مرتين لفرعون وأبيمالك ، ولولا تدخل السماء في اللحظة الأخيرة لاضطجع معها ذانك العاهلان. ومريم تضرب بالدف للراقصات وتحقد على أخيها وتعنته ، ويضربها الله بالبرص. وشاول (وكان في عهد داود) عندما يتنبأ يخلع ثيابه وينطرح عريانا نهاره كله وليله أمام الناس (٣١).

والأنبياء يظهرون في نفس الوقت وفي نفس الموضع جماعات جماعات ، وقد يتنبئون على أنغام الرباب والدف والناي والعود (٣٢) ، حتى ليقول العقاد بحق إن شأن الأكثرين منهم لا يزيد على شأن

الدراويش والمحاديث الذين يباركون الاطفال ، ويشفون المرضى ، ويتفوهون بالأقاويل التى تقبل التأويل على كل وجه حسبما يرتاح إليه السامع ، ويعيشون على الفضلات التى يلقيها إليهم الناس (٣٣)

ولا يميز كتابُ العهد القديم بين الأنبياء الصادقين والأنبياء الكذبة ، فكلهم عندهم أنبياء (٣٤) أما فى الإسلام فالنبى شىء ، والمتنبىء شىء آخر .

نخلص مما مرّ إلى أنه لا يحق للمعترضين أن يكذّبوا ما جاء فى القرآن من قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » ، فقد بيّنا أن « رجالاً » فى الآية تعنى « بشرًا » ، وهو ما لا يمكن أن يعارضه أحد ، إذ ليس فى تاريخ النبوات أن الأنبياء كانوا فى يوم من الأيام ملائكة . ثم إننا لم نكتف بهذا ، بل أوضحنا أن الله لا يمكن أن يكون قد « أرسل » رسلا من النساء . وليس فى العهد القديم نبيات مرسلات أما إن كان المقصود مجرد الالهام أو الوحى لبعض النسوة بتطمين او بشارة ، كما هو الحال مع أم موسى وأم عيسى عليهم جميعًا السلام ، فذلك شىء آخر لم تنفه الآية ، بل تحدث القرآن عنه .

وعلى هذا فان كلمة « رجالاً » ا فى الآية التى نحن

بصددها) تدل فى نفس الوقت على أن الأنبياء الذين « أرسلهم » الله لهداية العباد وقيادتهم كانوا بشرا ، وكانوا رجالاً لا نساء . وهذا من أسلوب القرآن الفذ ، إذ إنه بكلمة واحدة قد أصاب المعنيين جميعًا .

الهوامش

١- [illegible] / ٤٣ ، و[illegible] / ٧

٢- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٠٥ - ٣٠٦

٣- الفرقان / ٧ ، ٢٠ مثلا

٤- الإسراء / ٣

٥- الأنعام / ٨ ، وهود / ١٢ ، والإسراء / ٩٢ ، ٩٤ ، والفرقان / ٧ ، ٢١ ، والزخرف / ٥٣

٦- مثلا هود / ٢٧ ، وإبراهيم / ١٠ ، والمؤمنون / ٢٤ ، ٣٣ ، والشعراء / ١٥٤ ، ١٨٦ ، وفصلت / ١٤ ، والقمر / ٢٤

٧- الأنبياء / ٧ - ٨ . وانظر الآية / ٣٤ من نفس السورة

٨- انظر مثلا [illegible]

٩- تكوين / ٣٢ / ٢٤ - ٣٠

١٠- دانيال / ٩ / ٢١

١١- تكوين / ١٢ / ٧ ، و ١٧ / ١ ، و ١٨ / ١ ، و ٢٦ / ٢٤

١٢- تكوين / ١٨ / ٢٠ - ٢١

١٣- تكوين / ١٢ / ١٠ - ٢٠

١٤- تكوين / ٢٠ / ١ - ٧

١٥- تكوين / ٢٦ / ١ - ١١

١٦- تكوين / ٢٢ / ٢

١٧- تكوين / ١٧ / ١٩ ، ٢٦ / ١٢

١٨- تكوين / ٢١ / ٢٥ - ٣١

١٩- تكوين / ٣١ / ٣٢ - ٣٣

٢٠- تكوين / ٢٨ / ٢٠ - ٢٢

٢١- تكوين / ٣٢ / ٢٤ - ٣٠

٢٢- تكوين / ٣١ / ٩ - ١٠

٢٣- تكوين / الأصحاحان ٢٧ - ٢٨ وما بعدهما

٢٤- خروج / ١٥ / ٢٠ - ٢١

٢٥- عدد / ١٢ / ١ - ١٠

٢٦- قبل عدد هذه الإشارة إلى نبوة موسى عليه السلام لا يذكر في العهد القديم إلا بوصفه كاهنا لا غير

٢٧- لوقا / ٢ / ٣٦ - ٣٧

٢٨- عدد / ١١ / ١٦ - ١٧ ، ٢٤ - ٢٩

٢٩- عدد / الأصحاح ٣٠ كله

٣٠- لاويين / ١٢ / ١ - ٨

٣١- صموئيل الأول / ١٩ / ٢٤

٣٢- انظر مثلا صموئيل الأول / ١٠ / ٥ - ١١ و ١٩ / ٢٠ - ٤٢

٣٣- انظر عباس محمود العقاد / مطلع النور (ضمن « موسوعة العقاد الإسلامية ») / ١ / ٨٢١

٣٤- انظر مثلا عدد / ١١ / ٢٤ - ٢٩ وتثنية / ١٣ / ١ - ٥ ، و ١٧ / ٢٠ - ٢٢ و[illegible] ٥ / ٣١ ، و ٦ / ١٣ ، و ١٤ / ١٤ - ١٥ ، و ٢٣ / ١١ - ٤ وحزقيال / ٢٢ / ٢٥ ، ٢٨ وانظر كذلك [illegible] للاهوتي / ١٦ / ١٣ ، و ٢٠ / ١٠

٧- كلام عيسى فى المهد

كذلك كان ما ذكره القرآن من كلام عيسى فى المهد مثيرا لاعتراض النصارى . وملخص كلامهم أنهم ، رغم تمجيدهم له عليه السلام ، لا يعرفون له تلك المعجزة ، وكذلك لا يعرفها اليهود ولا المجوس ولا الصابئة ولا الهنود ولا الترك ولا الخزر ، ولم تسجل فى الانجيل رغم أن الكلام فى المهد أعجب من كل عجب ، إذ هو أمر ينفرد به عيسى دون سائر الأنبياء والمرسلين ، فضلا عن أن الخداع فيه غير ممكن ، فالطفل الرضيع لا يستطيع حيلة ولا تمويها (١)

وقد رد الجاحظ ، رحمه الله ، بأن اليهود لا يقرون لعيسى بأية معجزة (٢) ، بل يرون أنه كان صاحب رُقى وشعوذة وحيل وأنه كانت عنده معرفة بالطب والكتب ، وأن ما يروى عن شفائه المقعدين إنما كان باتفاق سابق بينه وبين بعض من الناس تظاهروا بأنهم مرضى فشفاهم . أما بالنسبة لمن قيل أنه أحياه بعد موته فلم يكن فى زعمهم ميت ، بل كان الأمر مجرد إغماء ، فانتهز عيسى الفرصة وأوهم الناس أنه كان ميتا وبأنه أعاد إليه الحياة . وبالمثل فالمجوس لا تقر لعيسى بأية معجزة . أما الهند والخزر والترك فإنهم لا يعترفون لنبى بأية معجزة بل لا يروون سيرة أى منهم ، فلماذا الاستشهاد بهم فى

مسألة كلام عيسى في المهد بالذات ؟

ويكفي للنصارى ما أورد الجاحظ هنا هو أنهم إنما نقلوا دينهم عن يوحنا ومتى (من الحواريين في زعمهم) ومارقس ولوقا (من التابعين) ، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ولا تعمد الكذب ولا التواطؤ على اقتسام الرياسة . وإن اختلاف أناجيلهم وتناقضها مع بعضها البعض لدليل على ذلك (٣)

وصحيح تماما ما يقوله الجاحظ عن اختلاف الأناجيل وتناقضاتها بل وأخطائها أيضا . ويكفي أن تقول هذه الكتب إن عيسى هو الله او ابن الله حتى تنتفي عنها الثقة ، اذ إن هذا بطبيعته ضلال بل كفر صريح . ثم انه من الغريب المضحك أن يقال مثلا ان هذا الإله (او ابن الاله) قد تعمد على يد أحد من عباده ، وهو يحيى عليه السلام (٤) ، او ان الشيطان قد قاده إلى جناح الهيكل في القدس ثم إلى احدى قمم الجبال ليختبره وبعد ذلك أمره بالسجود له . فأي اله ذلك الذي يحتاج الى التعمد اصلا ، فضلا عن أن يتم التعمد على يد أحد من مخلوقاته ؟ وأي اله ذلك الذي يقوده ابليس فينقاد له ؟ وكيف يطمع ابليس في ربه إلى هذا الحد المخزي ؟ والطريف ان عيسى (وهو اله في زعمهم) يرد على الشيطان حين يأمره بالسجود له

قائلا : « مكتوبٌ : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (٥) ، أى أن عيسى يعترف بانه مجرد عبد وأن عليه أن يسجد لربه فكيف يكون إلهًا ويكون له فى نفس الوقت إله ؟ وبالمناسبة فتعميد يحيى لعيسى واختبار إبليس له ليسا مذكورين فى إنجيل يوحنا ، على عكس الأناجيل الثلاثة الأخرى

كذلك فبين سلسلتى النسب اللتين أوردهما متى ولوقا للمسيح ابن مريم عليه السلام اختلاف شديد حسبما اشرنا من قبل ويمكن للقارىء الرجوع إليهما بنفسه ليرى كثرة الاختلافات والتناقضات التى بينهما . وحسبنا أن نقول هنا مرة اخرى إن كلتا السلسلتين تنسبه إلى يوسف النجار بل إن أمه هى ايضا تقول له إن يوسف ابوه وقد مر هذا آنفا .

وعيسى عليه السلام ، حسبما جاء فى الاناجيل ، يقول مؤكدا : « لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لاكمل فانى الحق أقول لكم الى ان تزول السماء والارض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض احدى الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يُدعى أصغر فى ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يُدعى عظيما فى ملكوت

السموت » (٦) ، وعقب ذلك ينطق هو نفسه بأشياء من خارج الناموس مثل ذلك ان الطلاق كان مشروعا قبله عليه السلام فجاء هو وحرمه الا بعلة الزنى ، بل جعل الزواج من المرأة المطلقة لونا من ألوان الزنى كما ان الحلف بالله كان جائزا قبلا، ثم اتى هو فحرمه كذلك حرم القصاص ، بل نهى عن مقاومة الشر البتة (٧) ولم يكتف بذلك بل جعل من يأمر به تلاميذه او ينهون عنه شرعا إلهيا واجبا (٨) ومعروف ما فعله بولس بعد ذلك من تحليل الميتة والخنزير والغاء الختان وهذا كله نقض للناموس

وهو ، حسبما جاء في الاناجيل الحالية ، يقول لبطرس « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة (يقصد بالصخرة هنا بطرس) أبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفتاح ملكوت السماوات فكل ما تربطه في الارض يكون مربوطا في السماوات وكل ما تحله على الارض يكون محلولا في السماوات » (٩) ، ثم يستدير ٣٦٠ درجة قائلا لبطرس هذا نفسه بعد ثلاثة اسطر « اذهب عني يا شيطان ، أنت معثرة لي لانك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (١٠) ، وذلك حين اشهره هذا التلميذ فاي اله ذلك لذى يغير رأيه هكذا وشيكا ؟ واعرف من ذلك أن بطرس عندما اشهره كان

يناديه بـ « يا رب » فكيف ينتهر إنسان ربه ؟

وهو عليه السلام يقول في موضع من الأناجيل : « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضا ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ومن سخرك ميلا فاذهب معه اثنين احبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم » (١١) ، ثم نسمعه في موضع اخر يقول : « جئت لألقي نارا على الارض فماذا اريد لو اضطرمت أتظنون أني جئت لأعطي سلاما على الارض كلا اقول لكم بل انقساما » (١٢)

كما قال عن نفسه انه لم يأت إلى العالم ليدين الناس « لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم » (١٣) وبعد قليل نجد عكس ذلك ، اذ يعود فيقول ان « الاب لا يدين احدا بل أعطى كل الدينونة للابن واعطاه سلطانا ان يدين ايضا لانه ابن الانسان كما اسمع ادين ودينونتي عادلة » (١٤)

وهو يؤكد ان شهادته لنفسه ليست حقا (١٥) ، لكنه لم حاكمه الفريسيون الى كلامه هذا عن نفسه قائلين له « انت تشهد لنفسك شهادتك ليست حقا » نقض ما كان قد قاله واكد لهم ان شهادته لنفسه حق (١٦)

وحتى في قصة الصلب . الصلب اسس مسيحية بعد

عجب : فالاناجيل الثلاثة الأولى تقول ان رجلا قيروانيا اسمه سمعان هو

الذي حمل الصليب الذي قُتل عليه المسيح (١٧) ، حتى حين يذكر

انجيل يوحنا انه هو الذي حمل صليبه بنفسه (١٨)

ومرة يقال لنا ان اللصين اللذين صُلبا معه كانا يعيرانه

ويستهزئان به كلاهما لانه زعم ادعائه انه ابن الله قد عجز عن تخليص

نفسه من الصلب (١٩) ، ومرة أخرى يقال إن أحد اللصين فقط

هو الذي عيره ، اما الآخر فكان متعاطفا معه وانتهر زميله

بشدة ، ثم ابتهل الى عيسى قائلا « ذكرني يا رب متى جئت في

ملكوتك » . فيعده عيسى بانه سيكون معه في الفردوس في نفس

ذلك اليوم الذي وقع فيه الصلب على زعمهم (٢٠) اما يوحنا فلم

يقل في هذا الامر شيئا فاراح واستراح

وحتى الكلمات التي يدعى أنه قد نطق بها وهو يسلم الروح

نجد الاناجيل مختلفة فيها اختلاف عنيفا فهي عند متى

ومرقس « الهي الهي لماذا تركتني » (٢١) ، وفي انجيل لوقا

« يا ابتاه في يديك استودع روحي » (٢٢) ، وفي يوحنا « قد

أكمل » (٢٣) ثم اليس عجيبا ان هذا الاله الذي نزل من عليائه

ليُصلب تكفيرا عن ذنوب البشرية التي ورثتها عن أبيها آدم ، كما يقولون ، يأتي في آخر لحظة فيضعف كل هذا الضعف ويدعو (يدعو من ؟ يدعو إلهه !) أن يهب لنجدته ، ويستغرب في ألم لأنه تركه ولم يبادر إلى إنقاذه ؟

أما الضابط الذي كان يشرف على عملية الصلب ففي بعض الأناجيل أنه قال بعد أن شاهد بعض المعجزات التي وقعت آنذاك : « حقا كان هذا (الانسان) ابن الله » (٢٤) ، وفي بعضها الآخر « في الحقيقة كان هذا الإنسان بارا » (٢٥) وفي إنجيل يوحنا لا يوجد شيء من ذلك البتة .

وبينما يذكر الانجيلان الاولان أن بيلاطس قبل ان يسلم عيسى للصلب قد قام بجلده (٢٦) نجد الإنجيلين الاخيرين لا يقولان شيئا عن عملية الجلد تلك .

فهذه هي الاناجيل التي يجعلونها مقياسا للقرآن ويخطئونه لأنه ذكر شيئا لم يرد فيها . وأحب أن أنبه القارئ إلى أن ما ذكرته من الاختلافات والتناقضات بين الاناجيل إنما هو غيض من فيض . وقد قام المعنيون بدراسة الكتاب المقدس من غربيين وشرقيين ونصارى ومسلمين في رصد هذه الاخطاء وذكرها . فليرجع القارئ

إليهم إذا أراد .

وعلينا ألا ننسى أن الأناجيل الأربعة الموثوق بها عندهم قد كُتبت بعد رفع عيسى عليه السلام بعشرات السنين ومن الذاكرة ، أي بعد أن كانت قد نُسيت أشياء، وزيدت أشياء، واقتحمت الوثنيةُ العقائد والتشريعات النصرانية . وكلامه في المهد معجزة قد وقعت قبل أن يصير نبيا ويصبح منهما في نظر الناس بزمن طويل بحيث يهتمون بما يقول أو يفعل ويحفظونه ، وكان ذلك أمام قوم أمه ولم يكن أمام الناس جميعا . فأغلب الظن أن ذلك هو السبب في أن هذه المعجزة لم تشع شيوع معجزاته الأخرى . بل إنه كانت في بعض الأناجيل التي تعتمدها الكنيسة أشياء حُذفت منها . فضلا عن ضياع معظم رسائل بولس (٢٧) .

ثم إن الأناجيل التي كُتبت عن سيرة المسيح كانت بالعشرات ، وعدم ذكر الأناجيل الأربعة لكلامه في المهد لا يدل بالضرورة على أنه لم يقع . ويقول جماعة من اللاهوتيين النصارى إن الأناجيل الأربعة « لا تتضمن تاريخا كاملا عن أعمال رب المجيد وتعاليمه بل ذكر شخصه ووظيفته وتأسيس النظام المسيحي ، الذي هو موضوعه الأعظم ، على أسلوب مختصر » (٢٨) . وفي إنجيل الصبا (أو الطفولة) ، الذي

كنت في حضر مسيح عليه السلام ، انه كان يخلق من الطين كهيئة الطير (٢٩) ، مع ان ذلك ليس في الاناجيل الاربعة المعتمدة عند الكنيسة كما ذكر له انجيل برنابا معجزات اخرى لم ترد في الاناجيل الاربعة ، مثل صراخ حجارة اورشليم تباركه ومعجزة المرآة (٣٠).

وفي هذا الانجيل ايضا انه تكلم في المهد ، اذ جاء فيه ان الطفل الرضيع قد حدث المجوس الذين اتوا من بلادهم الى المنزل الذي ولد فيه ، محذرا إياهم أن يمروا في طريق عودتهم بهيرودس ، حتى لا يعرف منهم مكان وجوده فيقتله (٣١) ومن الصعب الادعاء بان أحد من يريدون الدعاية للاسلام هو الذي كتب هذا في الانجيل المذكور ، اذ إن الكلام الذي ورد في القرآن على لسانه عليه السلام وهو لا يزال رضيعا يختلف عن هذا ، كما ان الموقف غير الموقف ، فقد وقع كلامه في القرآن عندما اشارت امه اليه ردا على اتهامهم اياها بالزنى ، وكان على النحو التالي « اني عبد الله ، اتاني الكتاب وجعلني نبيا ✽ وجعلني مباركا اين كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا ✽ وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ✽ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣٢) فهذه التفصيلات مختلفة عما ورد في برنابا رغم اتفاق الكتابين على كلامه في المهد ومثل ذلك

فقال فيما رواه إنجيل الطفولة عن كلامه وهو طفل رضيع ، إذ إن ما قاله آنذاك حسب ذلك الإنجيل هو أنه ابن الله (٣٣)

وقد سمع النجاشي وبطارقته صدر سورة « مريم » وفيه كلامه عليه السلام في المهد حوانا على إشارة أمه إليه عندما اتهمت بأنها ولدته من سفاح ، ولم ينكر أحد منهم ذلك ، بل أقرّ النجاشي بأن ما يقوله القرآن عن عيسى عليه السلام هو نفس ما يؤمنون به (٣٤)

وقد كان كبار رجال الدين النصارى النجرانيين الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يؤمنون بمعجزة كلام عيسى عليه السلام في المهد ، بل إنهم اتخذوها حجة على أنه ابن الله (٣٥)

وكذلك اقر الانبا شنودة (البابا شنودة حاليا) بما جاء في القرآن عن كلامه عليه السلام في المهد ، مؤكدا أنه معجزة لم تحدث لأحد من قبله ولا من بعده (٣٦) .

ويستنكر القرافي ، رحمه الله ، اعتراض المعترضين من النصارى على ما ذكر القرآن من كلام عيسى في المهد مؤكدا أن من الغريب أن يكون إلها (في زعمهم) قادرا على كل شيء ، ومع هذا يترك أمه نهبا لتهمة الزنى دون أن يبادر إلى تبرئتها أن هذا تستهجنه العقول (٣٧) وينبغي أن نضيف هنا أنه لو لم يحدث مثل هذه

المعجز أحدثت ثورة ضد شريعة موسى . وما من شيء أدل على [illegible] ويتضح من العمل ، حتى لا نحار أنهم أتوا إلى عيسى بامرأة زانية ليعلموا منه حكم الرجم على ما تقضي به شريعة التوراة (٣٨).

الهوامش

١- انظر « رسائل الجاحظ » ٢ / ٢٠٦ - ٢٠٨

٢- وضعيف أنهم لم يكونوا يرون أنه نبي ، فضلا عن أن يكون إلها أو ابن إله

٣- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٢٤ - ٣٢٩

٤- متى / ٣ / ١٣ - ١٦ ، ومرقس / ١ / ٩ ، ولوقا / ٣ / ٢١

٥- متى / ٤ / ١ - ١٠ ، ومرقس / ١ / ١٢ - ١٣ ، ولوقا / ٤ / ١ - ١٣

٦- متى / ٥ / ١٧ - ٢٠

٧- متى / ٥ / ٣٩ - ٤٢ ، ومرقس / ١٠ / ٢ - ١٢

٨- متى / ١٦ / ١٩ ، و ١٨ / ١٨ / ١٩

٩- متى / ١٦ / ١٨ - ١٩

١٠- متى / ١٦ / ٢٣

١١- متى / ٥ / ٣٩ - ٤٤ ، ولوق / ٦ / ٢٧ - ٣١

١٢- لوقا / ١٢ / ٤٩ - ٥١

١٣- يوحنا / ٣ / ١٧

١٤- يوحنا / ٥ / ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٠

١٥- يوحنا / ٥ / ٣١

١٦- يوحنا / ٨ / ١٣ - ١٤ ، ١٨

١٧- متى / ٢٧ / ٣٢ ، ومرقس ، ١٥ / ٢١ ، ولوقا / ٢٣ / ٢٦

١٨- يوحنا / ١٩ / ١٧

١٩- متى / ٢٧ - ٤٢ ، ومرقس / ١٥ - ٣٢

٢٠- لوقا / ٢٣ / ٣٩ - ٤٠

٢١- متى / ٢٧ / ٤٦ ومرقس / ١٥ / ٣٠

٢٢- لوقا / ٢٣ / ٤٦

٢٣- يوحنا / ١٩ / ٣٠

٢٤- متى / ٢٧ / ٥٤ ، ومرقس / ١٥ / ٣٩

٢٥- لوقا / ٢٣ / ٤٧

٢٦- متى / ٢٧ / ٢٥ ، ومرقس / ١٥ / ١٥

٢٧- انظر مثلاً [illegible] قصة الحضارة [illegible] ترجمة محمد بدران / ١١ / ٢٦٢ ، و ١٤ / ٢٢٠ ، [illegible] ومحمد [illegible] حوار مسلم مع العهد والأناجيل والأقليات / ١٥٠ - ١٥٤

٢٨- كتاب [illegible] محمد [illegible] المجامع في بلاد [illegible] ٢٢٦ - ٢٢٧

٢٩- انظر تفسير المنار / ٣ / ٢١١

٣٠- إنجيل برنابا / ترجمة د. خليل سعادة / ٢٩٢ - ٢٩٣

٣١- إنجيل برنابا / ٩

٣٢- مريم / ٢٧ - ٣٣

٣٣- إنجيل الطفولة / الأصحاح ١ / ٢ - ٣ ؛ محمد عزت الطهطاوي محمد صلى الله عليه وسلم نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن / ١١٠ - ١١١

٣٤- انظر سيرة ابن هشام / ١ / ٢٢٥ - ٢٢٧

٣٥- المرجع السابق ١ / ٥٧٥

٣٦- انظر مقال [illegible] الشرق و[illegible] بلاد السودة [illegible] مجلة « الهلال » عدد [illegible] ديسمبر ١٩٧٠م / ٢٥

٢٧- انظر القرافي / الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة / تحقيق د. بكر زكي عوض / ٣٤٧ - ٣٤٨

٢٨- يوحنا / ٨ / ١ وما بعدها

٨- هل النصارى أقرب مودة من غيرهم للمسلمين ؟

وقد تطرق الجاحظ ، في أثناء مناقشة شبهات النصارى التي عرض بها ورد عليها في رسالته ، الى موقف عوام المسلمين منهم ، وليست الذي صاروا به احب اليهم من المجوس ، واسلم صدورا عندهم من اليهود واقرب مودة واقل غائلة واصغر كفرا واهون عذابا ، وكيف يغلط كثير من المسلمين في تأويل قوله تعالى « لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ، ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون * واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ * فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » (١)

وقد علق الجاحظ على ذلك بقوله : « وفي نفس الآية اعظم دليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم الملكانية واليعقوبية ، وانما عنى ضرب (اى مثل) بحيرا وضرب الرهبان الذين كانوا يخدمهم سلمان (٢) ومن حمل قوله « الذين قالوا انا نصارى »

عن الغلط منهم (أى على الغلط من عوام المسلمين) فى الأسماء وبين أن يحرم عليهم لأنهم نصارى . مرق » (٣)

وهذه من المسائل التى تحتاج الى توضيح وتفصيل أكثر من ذلك ولابد فيها من الرجوع الى ما قاله القرآن فى المواضع المجتمعة منه فى النصارى وعقائدهم ، وعدم الاقتصار على هذه الآية التى أثارت عند عوام المسلمين هذا الاشكال ، وبخاصة أن كثيرا من النصارى من مستشرقين وعرب حينما يكتبون عن رأى القرآن فيهم وفى دينهم يستشهدون بهذه الآية الكريمة دليلا على رضى الإسلام عنهم ورأيه الطيب فيهم والمصير السعيد الذى ينتظرهم هم وقساوستهم ورهبانهم . وإلى القارىء خلاصة ما يخرج به الباحث فى القرآن عن وجه الحق فى هذه القضية :

لقد وصف القرآن الكريم فى عدد من المواضع انحرافات النصارى ، وسفه عقيدتهم فى « التثليث » ، وجعلها كُفْرًا من الكُفْر ، وحكم على الذين يقولون بها بأنهم كُفَّار مشركون قال تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح : يا بنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يُشْرِكْ بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر

الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة . وما من اله الا اله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم » (٤) وهو يؤكد أن عيسى لم يكن الا عبدا لله ورسولا اختير ليبلغ رسالته إلى بني اسرائيل ، ويصمُ الذين يدعون خلاف ذلك بالكذب والافساد ، ويدعو الى لعنهم « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقهُ من تراب ثم قال له . كُنْ ، فيكون * الحق من ربك فلا تكُنّ من المُمترين * فمنْ حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل . تعالوا ندْعُ ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهلّ فنجعلّ لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصصُ الحق . وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين » (٥) .

وقد تكرر قرنُهُ بينهم وبين اليهود ، مما يدلّ على أن هناك أوجه تشابه بين الفريقين . قال عز وجل : « وقالت اليهود : عُزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أُمروا إلا ليعْبُدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون *

يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون » (٦) وقال أيضاً : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هُوداً او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (٧) وقال سبحانه : « وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه . قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السماوات والارض وما بينهما ، واليه المصير » (٨) وقال تعالى : « وقالوا كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا . قل : بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » (٩) .

وهذا الاقتران بينهما في القرآن غير مقصور على الكلام عن عقائدهم المحرفة بل يشمل ايضاً مشاعر الكراهية والحقد التي يكنونها للمسلمين ورغبتهم في ان يحتلوهم عن دينهم الحق ويجروهم معهم فيما هم فيه من كفر وضلال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل : ان هُدى الله هو الهُدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » (١٠) « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً ، حسداً من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم

لحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير » (١١) .

كذلك فإن رأى القرآن فى معظم رجال الدين من اليهود والنصارى أنهم يصدون عن سبيل الله ويأكلون أموال أتباعهم بالباطل « يا أيها الذين آمنوا ، إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (١٢) وهو يتوعدهم بعذاب أليم فى نار جهنم يحرق أبدانهم ويكويها « يوم يُحمى عليها فى نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١٣) وقد رأينا كيف أن أتباعهم قد اتخذوهم أربابا من دون الله . وبطبيعة الحال فقد باركوا هذا ودفعوا إليه واستزادوا منه ، وإلاّ لكفّ أتباعهم عنه ولكان القرآن حينئذ قد برّأهم من جريمة هؤلاء الأتباع وكفرهم .

مما تقدم يتبين لنا رأى القرآن السىء فى النصارى وعقائدهم وبغضهم للإسلام والمسلمين وكذلك فى رجال دينهم وهم فى ذلك مثل اليهود وأحبارهم ، فلماذا قال القرآن فيهم إذن : « لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين

آمنوا الذين قالوا : انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا ، آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين * ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ * فاثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » ، مما قد يُفهم منه انه يفرق بينهم وبين اليهود فى مسألة المشاعر تجاه المؤمنين وفى مسألة المصير الذى ينتظرهم ؟ هل يعقل ان يكون للقرآن رأيان فى النصارى متناقضان هذا التناقض ، إذ يصمهم بالكفر والشرك والكذب والافساد والفسوق فى مواضع منه ويتوعدهم بما يتوعد به كل كافر كذاب ، ثم يأتى فى هذه الآيات الأخيرة فيذكُرهم بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا ويتحدث عن رقة قلوبهم ومسارعتهم إلى الايمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ويبشرهم بما اثابهم الله به من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والخلود فيها جزاء لهم على إيمانهم وإحسانهم ؟

لقد وجدت عددا من الكتاب فى بعض البلاد العربية يذكر النصارى بخير ويثنى عليهم ويمدحهم مستشهدا بهذه الآيات ، فكنتُ

أتعجب من ذلك وأستغربه أشد الاستغراب ، وأحاول أن أبين أن الأمر ليس كما يظنون ولكن فريقا من الذين كنتُ أحاورهم كانوا لا يقتنعون تمامًا بما أقول .

وقد كان منطلقي هو أن القرآن لا يمكن أن يتناقض بعضه مع بعض فإذا كان يكفر النصارى ويتوعدهم بالعذاب الأليم ويدعوهم إلى التوبة مما هم عليه فلا يُعقل أن يرجع فيقول فيهم عكس ذلك مع بقائهم على ما هم عليه وعدم توبتهم منه وتوبتهم لن تكون بطبيعة الحال إلا بالتصديق برسالة محمد عليه الصلاة والسلام والتحول إلى الإسلام .

وكنتُ أضيف أن عداوة النصارى للإسلام طوال هذه القرون الاربعة عشر هي عداوة لدود ، وان المسلمين لم يروا منهم رحمةً ولا عدلا أو إنصافا ، وان مؤامراتهم علينا لم تنته ، وأنه قد اتضح لكل انسان الآن ما يخططون له لفتنتنا عن ديننا وإدخالنا في دينهم ، وكأنه لم يكفهم ما أنزلوه بنا من ويلات وتقتيل وتنكيل واستنزاف ثرواتٍ أيام أن كان استعمارهم لبلادنا استعمارًا ظاهرًا ، ولا مازالوا يُنْزلونه بنا من هذا كله وغيره في هذه الأيام السود التي اتخذت سيطرتهم علينا أساليب أخفى وأدهى ، وأن رجال دينهم من قساوسة ورهبان كانوا ومازالوا هم

الذين يحرضونهم ويقودونهم ويمثلونهم أثناء هذا العدوان الشرس الذي يصطلي ناره منذ قرون . وكنتُ أذكر بالحروب الصليبية التي سعر نارها هؤلاء القساوسة والرهبان ، والفظاعة البشعة التي عامل النصارى بها احداث في الاندلس ، والغدر والخيانة اللذين توسلوا بهما الى خنق الأنفاس الأخيرة للمسلمين هناك حتى اصبحت البلاد كاثوليكية مثلثة بعد ان كانت توحد الله وتؤمن بمحمد عليه السلام وبالقرآن الذي جاء به من عند ربه ، وانتزاع فلسطين من أيدينا وإعطائها غنيمة باردة لليهود ، والقسوة المتوحشة التي تُصب على الأقليات (وأحيانا الاكثريات) المسلمة في البلاد التي يحكمها النصارى ، والسخائم السوداء التي تلطخ ما يكتبه معظم المستشرقين وكل المبشرين عن محمد عليه الصلاة والسلام ودينه الحقّ . ثم ها نحن اولاء قد رأينا بأم أعيننا ما فعله الغرب (الغرب كله ، لا الصرب وحدهم كما تحاول وسائل الاعلام أن تقنعنا) باخواننا المسلمين في يوغسلافيا السابقة ، كراهية منهم أن يسمعوا في أوربا كلمة التوحيد

ثم كنت أقول إنه لا شيء في هذه الآيات الكريمة يمكن أن يصدق على النصارى : فلا هم ينطوون لنا على أية مودة ، ولا هم يظهرون نحونا تواضعا إذا كان في يدهم القوة والسلطان ، ولا أعينهم

تفيض من الدمع عند سماعهم القرآن الكريم ، ولأنهم يعترفون بالحق ويعلنون الإيمان بمحمد ودينه . كذلك فإن الآيات تعلل من ذكرنه من مودتهم للمسلمين بأن منهم قسيسين ورهبانا ، فمتى كان القسيسون والرهبان يبيّنون لأتباعهم أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى رسالة الحق وأنهم ينبغى أن يؤمنوا بها ، ثم لا يكتفون بهذا بل يسارعون إلى أن يكونوا هم أول المؤمنين ؟

وأخيرا كيف يمكن أن يقول القرآن عن النصارى إنهم أقرب لنا مودة وهو ينهانا نهيًا حاسما فى نفس السورة (الآية / ٥١) عن موالاتهم بأية حال ؟ إذن ما وجه الحق فى هذه الآيات ؟ الحقيقة أنها قد نزلت فى فريق مخصوص من النصارى وفدوا على المدينة وقرأ عليهم النبى صلى الله عليه وسلم بعض آيات القرآن فلمست قلوبهم وتفتحت لها عقولهم وهزتهم من أعماقهم ففاض من عيونهم الدمع رقةً وحنانً وتواضعًا وإخباتً ، وسرعان ما أعلنوا إسلامهم (١٤) . إذن فالكلام فى الآيات هو عن نصارى بأعيانهم وليس عن كل النصارى . وقوله سبحانه : « الذين قالوا : إنا نصارى » ليس على إطلاقه فيشمل جنس النصارى كله ، ولكنه للعهد ، أى أن المقصود به طائفة معينة يعرفها المخاطب بالكلام .

وقد كان في هذا الوفد عدد من القساوسة والرهبان فأشار القرآن الكريم إليهم بقوله : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » على أن إشارة القرآن في نظري ليست لمجرد الإخبار ، وإلا لما كان ثمة داع إليه ، إذ ماذا يفيد أن نقول إنه كان في هذا الوفد قسيسون ورهبان ، إذا كان وجودهم فيه لا يقدم ولا يؤخر ؟ إن معنى « القسيس » هو العالم عندهم ، أما « الراهب » فهو العابد الذي يخاف ربه ويرهب مقامه سبحانه ويخشى عذابه . ويبدو أن المقصود بقوله عز وجل « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » أنه كان فيهم قساوسة ورهبان حقيقيون . وذلك مثلما يقول الواحد منا : « إن فلانا رجل » ، وهو لا يريد أن يشير إلى جسمه وأنه رجل لا امرأة ، وإنما قصده أنه رجل بكل معاني الكلمة من المروءة والوفاء ، وممكن الاعتماد عليه في وقت الشدة والجهر بكلمة الحق .. إلخ فكونهم قسس ورهبان بحقّ ، أي عالمين مخلصين للحقيقة يجهرون بها دونما مواربة أو خوف أو مراعاة للمصالح والأطماع الذاتية ، وخائفين متقين لربهم يرجون رحمته ويخشون عذابه ، هو الذي جعلهم يخشعون لما سمعوه من القرآن ولا يتأبّون على ما فيه من دعوة الحقّ بل يسارعون إلى التصديق به وإعلان إيمانهم أمام الملإ ، مما كان له تأثير على سائر أعضاء

الوجد فأعلنوا إيمانهم معهم.

يقول سيد قطب ، رحمه الله ، فى هذا الصدد : « إذا كان الواقع التاريخى قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للاسلام منذ اليوم الاول الذى دخل فيه المسلمون عليهم المدينة فى صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الاسلام موقف العداء منذ وقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ، فيما عدا الحالات التى وقع فيها ما تصفه الآيات التى نحن بصددها فاستجابت قلوب للاسلام ودخلت فيه ، وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمى بعدل الاسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كانوا يلاقون من ظلمها الويلات أما التيار العام الذى يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التى لم يخب أوارها إلا فى الظاهر منذ التقى الاسلام والرومان على ضفاف اليرموك ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين فى حرب الاسلام على كل ما بينهما من أحقاد ، ولكنهم كانوا فى حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير : « بعضهم أولياء بعض » حتى مزقوا دولة الخلافة ، ثم مضوا ينقضون هذا الدين عروة عروة ».

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغدا فلا يساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة ، التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآني دون متابعة لبقيته ، ودون متابعة لسياق السورة كله ، ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة ، ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله ، ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيّت لهم الكيد ، الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة » (١٥) .

الهوامش

١- المائدة / ٨٢ – ٨٥

٢- يقصد الرهبان الذين اتصل بهم سلمان الفارسي في رحلة بحثه عن الحق والذين كانوا يخبرونه بقرب مبعث نبي من جهة بلاد العرب

٣- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٠٨ – ٣١١

٤- المائدة / ٧٢ – ٧٣

٥- آل عمران ٥٩ – ٦٢

٦- التوبة / ٣٠ – ٣٢

٧- البقرة / ١١١

٨- المائدة ١٨

٩- البقرة / ١٣٥

١٠- البقرة / ١٢٠

١١- البقرة / ١٠٩

١٢- المائدة / ٣٤

١٣- المائدة / ٣٥

١٤- انظر في ذلك مثلا ابن جرير الطبري / جامع البيان / ٥ / ٣ ، وابن كثير / تفسير ابن كثير / ٢ / ٨٦ . والسيوطي / الدر المنثور / ٣ / ١٢٩ – ١٢٨

١٥- سيد قطب / في ظلال القرآن / ٢ / ٩٦٦ – ٩٦٧ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

إبراهيم خليل أحمد / إسرائيل والتلمود / مكتبة الوعي العربي / القاهرة / ١٩٨٣م.

إبراهيم سليمان الجبهان / معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير / ط ٥ / عالم الكتب / الرياض / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / مطابع المجد التجارية

ابن حزم / رسائل ابن حزم الأندلسي / تحقيق د. إحسان عباس / ط ١ / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٨١م

ابن حزم / الفصل في الملل والأهواء والنحل / تحقيق د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة / ط ١ / مكتبات عكاظ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

ابن قتيبة / تأويل مختلف الحديث / تصحيح وضبط محمد زهري النجار / دار الجيل / بيروت / ١٣٩٣هـ - ١٩٧٠م

ابن قيم الجوزية / هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / تعليق مصطفى أبو النصر الشلبي / ط ١ / مكتبة السوادي / جدة / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

ابن كثير / البداية والنهاية / ط ١ / مطبعة السعادة / ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م

ابن كثير / تفسير ابن كثير / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٠هـ

ابن هشام / سيرة ابن هشام / تحقيق السقا والإبياري وشلبي / ط ٢ / مصطفى البابي الحلبي / ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م

د. أحمد سوسة / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ط ٥ / دار الرشيد / بغداد / ١٩٨١م.

د. أحمد شلبي / اليهودية / ط ٤ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٧٤م

برنابا / إنجيل برنابا / ترجمة د. خليل سعادة / مكتبة محمد علي صبيح / القاهرة / ١٩٥٨م

الجاحظ / رسائل الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / ط ١ / مكتبة الخانجي / ١٣٩٩هـ = ١٩٨٩م / ٣ / ١٣

خلاصة من اللاهوت المسيحي / رب المجد / مركز المطبوعات المسيحية / بيروت

رءوف أبو سعدة / من إعجاز القرآن: العلم الأعجمي في القرآن مفسر بالقرآن / دار الهلال / القاهرة / ١٩٩٤م

د. رءوف شلبي / يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء / ط ٢ / دار الاعتصام / القاهرة / ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م

القمص زكريا بطرس / الله واحد في الثالوث القدوس / ط ٥ / مركز المحبة / السويس

السموأل بن يحيى المغربي / إفحام اليهود / تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي / الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد / الرياض / ١٤٠٧هـ

سيد قطب / في ظلال القرآن / ط ١٠ / دار الشروق / ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

السيوطي / الدر المنثور / ط ١ / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

العلامة شبير أحمد عثماني / تفسير عثماني (بالأوردية) / مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة

لابت شوده / مقال « القرآن والمسيحية » / مجلة « الهلال » المصرية /

ديسمبر ١٩٧٠م .

د . صابر طعيمة / الأسفار المقدسة قبل الإسلام / ط ١ / عالم الكتب / بيروت / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

صابر طعيمة / اليهود بين الدين والتاريخ / ط ١ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٧٤م .

صلاح العجماوى / جوهر الايمان فى صحيح الأديان - أهل الكتاب / ط ١ / ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

الطبرى / جامع البيان / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

عباس محمود العقاد / موسوعة العقاد الإسلامية / ط ١ / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٩٧١م .

القاضى عبد الجبار / تثبيت دلائل النبوة / تحقيق د . عبد الكريم عثمان / دار العروبة / بيروت .

عبد الجليل شلبى / رد مفتريات على الإسلام / ط ١ / دار القلم / الكويت / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

د . عبد الحليم محمود / المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى / ط ٨ / دار الكتب الحديثة / ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

عبد الرزاق بن همام الصنعانى / تفسير القرآن / تحقيق د . مصطفى مسلم / ط ١ / مكتبة الرشد / الرياض / ١٤١٠هـ .

أبو محمد عبد الله الترجمان الميورقى / تحفة الأريب فى الردّ على أهل الصليب / دراسة وتحقيق وتعليق عمر وفيق الداعوق / ط ١ / دار البشائر الإسلامية /

١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

د. على عبد الرحمن وافى / الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام / دار نهضة مصر / القاهرة

د. فؤاد حسنين على / التوراة / القاهرة .

فخر الدين الرازى / مناظرة فى الرد على النصارى / تحقيق د. عبد المجيد النجار / دار الغرب الإسلامى / بيروت / ١٩٨٦م .

القرافى / الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة / تحقيق د. بكر زكى عوض / ط ٢ / مكتبة وهبة / ١٤٠٧هـ = ١٩٧٧م .

الكتاب المقدس / دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط .

محمد جلال كشك / خواطر مسلم عن الجهاد والأناجيل والأقليات / ط ٢ / دار ثابت / ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م .

محمد رشيد رضا / تفسير المنار / مكتبة القاهرة .

د. محمد زغلول سلام / الأدب فى العصر المملوكى / دار المعارف / القاهرة / ١٩٧١م .

محمد عزة دروزة / تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم / المكتبة العصرية / صيدا وبيروت / ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م .

محمد عزت الطهطاوى / محمد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام فى التوراة والانجيل والقرآن / ط ٢ / مكتبة النور / القاهرة .

المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندى والدكتور القسيس فندر / تحقيق د. محمد عبد القادر خليل / ط ١ / دار ابن تيمية / الرياض / ١٤٠٥هـ .

الموسوعة العربية الميسرة / دار الشعب / القاهرة .

تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٨٣م .

ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ط ٣ ، دار الفكر ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

Abdullah Yusuf Ali . The Holy Quran . Dar Al-Arabia . Beirut .

Basil Cottle . The Penguin Dictionary of Surnames .

Collier's Encyclopaedia . 1973 .

E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam .

Encyclopaeida of Islam . New Edition .

James Hastings . Encyclopaedia of Religion and Ethics . Edinburgh . 1971.

Ludwig Ullman . Der Koran - Das heilige Buch des Islam . Goldmann . München .

Muhammad Hamidullah . Le Saint Coran . Beyrouth . 1973 .

The Oxford English Dictionary .

S. A. A. Maududi . The Meaning of the Qur'an . translated by Muhammad Akbar . 2nd edition . Islamic Publications Ltd. . Lahore . 1978 .

Dr. Salah El-dine Kechrid . Al-Qur'an al-Karim . 5 eme edition . Dar el-Gharb el-Islami . 1990 .

Thomas Patrick Hughes . Dictionary of Islam . Premier Book House . Lahore .

William Smith . Dictionary of the Bible . London . 1863 .

الفهرست